سلسلة إيقاظ أهل الإيمان لمغفرة رمضان

والذين جاهدوا فينا

لنهدينهم سبلنا

فضيلة الشيخ / محمد الدبيسي

حفظه الله وعفا عنه

سلسلة إيقاظ أهل الإيمان لمغفرة رمضان

(٣)

والذين جاهدوا فينا

لنهدينهم سبلنا

لفضيلة الشيخ

محمـــد الدبيسي

حفظه الله ونفع به

وغفر له ولوالديه

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٣٠هـ الموافق سبتمبر ٢٠٠٩ م

جميع الحقوق محفوظة

مقدمة

إن الحمد لله، نَحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾

[النساء:١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

[الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد...،،

فإنَّ أصدقَ الحديث كتابُ الله تعالى، وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور مُحْدثاتُها، وكلَّ محدَثة بدعةٌ، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد النبي، وأزواجِه أمهاتِ المؤمنين، وذرِّيته وأهل بيته، كما صليتَ على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.(١)

لما كانت المجاهدة هي القضية الشاغلة للمؤمنين المتقين في كل زمان ومكان، فقد اختصرنا شيئًا من خطب فضيلة **الشيخ/محمد الدبيسي**، تتناسب مع ما نحن فيه، رفعًا لراية المجاهدة، وأملًا في تغيير الأحوال من الكلام والمواعظ والعلم، إلى التحقق بذلك والتخلق به.

إذ نحن محتاجون إلى المجاهدة في العلم، حتى نحصله، وفي العمل بهذا العلم، ليكون علمًا نافعًا، محتاجون إليها في التعبد والسلوك إلى الله تعالى، محتاجون إليها في التحلي بالأخلاق الحسنة وترك الأخلاق السيئة، محتاجون إليها للثبات على طريق الله والسير فيه، محتاجون إليها في البذل والتضحية، محتاجون إليها في الإقبال على القرآن الكريم والعمل به والدعوة إليه، محتاجون إليها في تعمير الظاهر والباطن بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، محتاجون إليها لتحقيق كل أسباب النجاة والفوز، والبعد عن أسباب الهلاك والبوار في الدنيا والآخرة..

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

[العنكبوت: ٦٩].

---

(١) حديث خطبة الحاجة رواه أبو داود (٢١١٨) من حديث ابن مسعود، ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٣٨هـ، والحديث صححه ابن العربي في عارضة الأحوذي (٢٧/٣) والذهبي في المهذب (١١٤٢/٣).

إننا بدون المجاهدة سنبقى متأخرين عن الله تعالى؛ نسمع ولا نتبع، ونتعلم ولا نعمل، ونصف الخير ولا نتصف به، ونروي السير بذلًا وهجرة وجهادًا، ولا نقتدي بها ولا نقتفي أثرها، ونشبع من سماع المواعظ، ولا نتعظ !

كان لزامًا رفع لواء المجاهدة وتبيين طريقها، وإظهار حسن عاقبتها، لنبدل هذا الواقع المر الأليم، فرارًا إلى الله تعالى، ونجاة بالنفس، وتحملًا لشرف مسؤلية هذا الدين، خاصة في شهر المجاهدة، شهر رمضان المعظم.

كانت هذه الرسالة جهدًا متواضعًا نشارك به في ذلك؛ وأضفنا إليها جزءًا من خطبة الاستبدال نشير به إلى خطورة ترك المجاهدة، والعواقب الوخيمة التي تنتظرنا إن فرطنا فيها؛ نسأل الله تعالى أن يعيننا والمسلمين على تحقيق ذلك إنه سميع قريب مجيب.

لا شك بعد ذلك في أننا ننتظر نصحًا نسد به خللًا أو نصلح به خطأ، تعاونًا على البر والتقوى.

نسأل الله تعالى أن ينفع بها القارئ والسامع والناظر فيها والناشر لها.

مسجد

الهدي المحمدي

الفصل الأول:

لماذا لا نستجيب؟

الفصل الأول: لماذا لا نستجيب ؟

موعدنا مع أولئك الذين عاهدوا الله تعالى بعد رمضان الماضي، على أن يكون هذا العام الذي نحن فيه تعويض واستدراك ما فات من أعمال الإيمان، وتحقيق العهود مع الله تعالى، والوفاء بما ارتبط فيه مع ربه جل وعلا؛ أن يكون هذا الموسم من مواسم المغفرة هو البداية التي يفرغ فيها المرء قلبه وبدنه ونشاطه وعقله وذهنه ووقته وكل شيء لله تعالى.

فقد رأى ضعف إقباله على الله، وسرعة انقضاء الدنيا، وأنه لم يحصل شيئًا ينفعه عند ربه سبحانه وتعالى، فيبدأ في أول خطوة تكون بداية الرجوع إلى الله تعالى، وبداية الوفاء بما عاهد عليه الله جل وعلا في رمضان الماضي بعد الخيبة والخسارة.

ترى هؤلاء قد وقَّعوا هذا العقد بينهم وبين الله تعالى: قد بدأوا حقًا لعل الله تعالى أن يطلع على امرىء منهم؛ فيجده صادقا مرة أو مخلصا مرة لله تعالى؛ فيكون ذلك سببا لأن يفتح الله عليه، أن يفتح له أبواب الآخرة، وأن يسد عنه أبواب لهو الدنيا، وأن يتحمل الله جل وعلا عنه أتعابه وأشغاله التي شغلته عندما يرى حزنه وضيقه بما هو فيه من بعد عن الله جل وعلا، ومن ضعف في الإقبال عليه، ومن قلة التعلق به وحسن التوكل عليه من أنه ليس بينه وبين ربه هذه العلاقة الحسنة، هذه العلاقة الخاصة التي تجعله من عباد الله تعالى المقربين، ومن أوليائه الأصفياء المخلصين الذين أخلصهم الرب جل وعلا لعبادته ومحبته.

قد رأيت الطريق إلى الله تعالى، وعلمت كيف تستعين بالمولى جل وعلا في السير فيه، ومع ذلك أنت معرض عنه، متردد في الإقبال عليه، تؤثر عليه غيره من أمور الدنيا؛ فإن كان في أمور الآخرة وأمر الله تعالى وجدت نفسك متباطئا متكاسلا تقول: غدا إن شاء الله عندما أرجع من هذا السفر سأبدأ، وعندما تنتهي فقط هذه الأيام الصعبة، أو تنتهي هذه الامتحانات، أو تنتهي هذه الشغلة التي أنا فيها اليوم، وبإذن الله تعالى سأبدأ...

والسؤال : هل بقي أهل الإيمان من العام الماضي متعاهدين مع الله تعالى على أن يأخذوا الأمر بجد ، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا، وأن يكونوا من أبناء الآخرة؛ فتأتيهم الدنيا راغمة؟ أو أنهم ما زالوا خائفين على الدنيا راكنين لها، لا يسيرون إلا إليها، لا يغفلون عنها، إن غفلوا عن الآخرة ؟

هل ما زالوا على العهد مع الشيطان؟ حيث وعدهم بالحياة إلى العام القادم، ومناهم بالعمل الصالح فيه، ليضيع عليهم عمرهم وعملهم، أم أنهم قد تخففوا من عهود الشيطان والنفس والهوى والشهوات وطول الأمل والغفلة، وعلموا أنهم إذا ما رجعوا إلى ربهم سبحانه وتعالى أغناهم، وكان سبحانه وتعالى في شغلهم، أم ما زالوا على حال عدم الثقة في أمر الله تعالى واليقين فيما عند الله، وأنهم يؤثرون ما في أيديهم على هذا الباقي الذي ليس في أيديهم؟

وصلنا إذن لهذه الحالة التي نتكلم على محاولة الشفاء منها، أو الاستشفاء من عللها وأوجاعها، ونحاول أن نخرج منها خروج المتعبدين الموحدين لله سبحانه وتعالى

الذين يؤثرون ما عند الله كما قال المولى جل وعلا ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧] وقد ذكر المولى سبحانه وتعالى قبل ذلك قوله جل وعلا ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ ﴾ [الأعلى: ١٤-١٦] يعني: من تزكى فقد أفلح، يعني فقد اشتغل في الخدمة لله تعالى، وقام في التعبد له والإقبال عليه والتلذذ بطاعته، وعدم وجدان التعب والمشقة في الإقبال على الله تعالى كما يرى المشقة في الإقبال على الدنيا.

لكن لما قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ ﴾ [الأعلى: ١٦] دل ذلك على السبب المانع من أن يقوم المرء لله، وأن يتزكى لله بأن التزكية، وأن يتحقق بهذه المعاني التي جاء بها الشرع، وهو يقول: إيثار الحياة الدنيا إنه المانع من القيام بتحقيق أمور الشرع الشريف الذي جاء لهذه التزكية كما قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ [الجمعة: ٢] ففعلُهُ صلى الله عليه وسلم وعملُهُ وسعيه إنما هو لتعليمهم العلم الذي تنبني عليه التذكية كما ذكر الله تعالى في هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ﴾.. فهو يتلو عليهم آياته ويعلمهم فيتزكوا بذلك؛ لأن التزكية منبنية على تلاوة الآيات والتعلم، ولكنه قدم التزكية؛ لأنها المقصد الذي بُعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أجله، فلما آثر المرء الدنيا على الآخرة وقف ذلك الإيثار حائلا دون هذه التزكية للنفس، ودون هذا الذكر للرب، ودون هذه الصلاة والخدمة لله جل وعلا ، فانظر إلى ما وصلنا إليه.

كنا نود أن نستكمل هذه القضية ولكن نقفز إلى هذا السؤال الأن وهو: **هل قررت أن تـوفي بما عاهدت عليه الله أو لا؟** لقد عاهدت الله تعالى كثيرا، وأعطيت وعودًا طويلة أن تفعل وأن تفعل، وأن تكون عبدًا وقد علمت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ورأيت فيها المثل الذي تود أن تكون عليه، وتحاول أن تجاهد في الوصول إليه، وعشت بعقلك هذه الحياة الجميلة للنبي وأصحابه صلى الله عليه وسلم من معرفة الرب والإقبال عليه وبذل النفس والوسع والجهد والمال لله جل وعلا، وتود أن تعمل شيئًا على سيرة هؤلاء، أو تود أن تمشي على نهجهم وعلى طريقتهم التي كانت السبب في رفع رايتهم، ومحبة الرب لهم، ونصر الله إياهم سبحانه وتعالى.

فعندما تعيش هذه الأيام: أيام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه تجد عندك شوقا إلى معايشة هذه الأيام ، ومحبة لأن تتمثلها، ومسارعة لأن تقبل عليها وأن تعيشها، وأن تدعو إليها.

شتان الفارق بين الحقيقة والخيال

إن ساعات كثيرة يعيش فيها خيال المرء مع الصحابة وانتصار الإسلام، ويود أن ينتصر الإسلام والمسلمون اليوم على هؤلاء الكفرة المجرمين، ويرسم صورًا بديعة لهذا النصر هذه الأيام، وصورًا لفعل الله بالمشركين والكفرة وغيرهم ، وصورًا لظهور الإسلام وانتشار الدين، وعلو كلمة الله ورايته، ورفع علم التوحيد، يعيش هذه اللحظات في عقله وذهنه، ويود أن تتحقق في واقع أمره على أرض الله تعالى ـ أم أنك لا تود ذلك؟ ـ ثم إذا به يفيق من هذا الخيال ويفيق من هذه الأحلام على ذلك الواقع المر

الذي نحن فيه، وكأنك بهذه الأحلام التي تحياها من نصر الدين ونصر الإسلام وقيام دولة المسلمين ورجوع الحق وإزهاق الباطل وغير ذلك مما تحلم به سوف يتحقق بهذا الخيال الذي تعيشه للحظات ثم تفيق منه على الواقع المؤلم الذي أنت فيه وأنك لا تستحق نصرًا ولا تستحق شيئًا فتصاب بالحسرة.

إنك تتخيل هذه الأحلام ثم تقوم لتمارس بقية أحوالك في هذا الواقع الأليم الذي نحياه، و هذه الأحلام لن تتحقق بتلك الأوهام التي نحياها، وبتلك الخيالات التي يتخيلها المرء إذا كان هو نفسه عريًا عن الأسباب التي ينصر الله تعالى بها عباده.

أيها المسكين الذي تريد أن ينتصر الإسلام وتعلو رايته، وأن ينتشر دين الله تعالى، وأن ينقمع الكفر والفساد، وترى يومًا يذل الله تعالى فيه الكفر وأهله، **تراك حاولت حينئذ أن يتحرك في قلبك هذا الوازع الذي به تنصر دين الله تعالى بأن تغير نفسك، وأن توفي بما عاهدت به ربك سبحانه وتعالى، وأن تكون عنصرًا فعالاً نشطًا لله تعالى صادقًا مخلصًا** يتحقق بك هذا النصر الذي تعد نفسك به والذي تنام تحلم به وتقوم وتراه في خيالك وأوهامك؟

إن الإسلام وأعماله قد وصلنا بهذه السهولة التي نراها، ومع ذلك زهدنا في القيام بحقوقه، وتأخرنا عن أن نلحق بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في شيء - لن نبلغ شأنهم، ولكن السير على دربهم هو المطلوب لمثل هذه الأحوال؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

علمت أيها الأخ الكريم شيئًا من مسؤوليتك التي ينبغي أن تؤديها بشكل ما سواء كانت على الوجه الأكمل أو الوجه الأنقص، وعلمت في نفس الوقت الطريق

المعين على تأديتك لهذه المسؤولية وعلمت ما يعينك في القيام بها، وما عليك إلا أن تكون كما كنت قبل أن تكون ملتزمًا بشرع الله تعالى سائرًا على درب النبي صلى الله عليه وسلم !

كنت قبل ذلك هذا الشخص الذي يشتعل نشاطا للدنيا والسير فيها والعمل لها، فما أن انتهيت إلى دين الله تعالى وإلى العمل بسنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى أصابك النوم والكسل وطول الأمل، وإذا بك هذا الشخص الضعيف المتواني الكسل، هذا الشخص الذي يؤجل أعماله إلى الغد، وما بعد الغد، هذا الشخص الذي يعد ولا يوفي، وإن وفى شيئًا ما نكص على عقبيه مرة أخرى ورجع!

ما هذا الذي قد أصابك؟..

إنك بمعرفتك لله تعالى وإقبالك عليه قد تعرضت لمدد الله تعالى، تنزلت عليك قوة من الله جل وعلا، وتنزلت عليك من الله سبحانه وتعالى الرحمات والبركات في الوقت والجهد والنفس والمال، وتغير قلبك إلى إرادة الآخرة ومحبتها والعمل لها: ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا** ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٩] ؛ فإذا بك لست صاحب السعي المشكور، ولست صاحب هذا الصدق في الإقبال على العمل، ولست صاحب هذا النشاط الذي تقوم لله تعالى به، وإذا بك تصاب في همتك وعزيمتك وإرادتك، وتصاب في وقتك وجهدك وأهلك وولدك، وتصاب في بدنك ولا تستطيع أن تقوم ما الذي أصابك إذن؟ ما الذي حل عليك؟

لم يحل عليك هذا إلا لأن الشيطان إذا رأى المرء يود أن يسير في طريق الله تعالى لا يتركه يسير في طريق الله جل وعلا ... كيف يسير؟ فبعد أن كان ناشطًا في الدنيا، وكان شعلة فيها من النشاط إذا به تنقلب أحواله لما أراد الآخرة؛ لأن الشيطان قد وقف له في الدنيا لم يكن الشيطان ليقف له؛ حتى يعطله عنها، وإنما يراه كذلك فيحبه ويعينه ويساعده على أن يزداد نشاطا في تحصيل الدنيا، أما إذا أراد الآخرة إذا بهذا الشيطان يقف له في طريقه كما ذكر الله تعالى ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝١٧ ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

فلما سرت في طريق الله تعالى اعترضك الشيطان؛ فأضعف همتك، وزاد من شهواتك، وأعطاك وقود اللذات في الدنيا وطول الأمل فيها، وأصابك بالغفلة والانشغال عن الله جل وعلا، وإذا بهذا الشيطان يحاربك بما فيك من الأسلحة التي قد هُيئت في قلبك: من الشهوة والغضب والغفلة ومحبة الدنيا والإقبال عليها، والنظر إليها والتوسع فيها والركون إلى المال والأهل والولد، والميل إلى الصور الجميلة والمناظر الحسنة من النساء والأولاد، والحرث وغيرها حتى ضعف قلبك وبدنك عن السير إلى الله تعالى؛ فإذا بك ضعيف لا تستطيع، وإذا بك مبتعد خائف أن تقوم لله تعالى، وكل ذلك كيد الشيطان، وهو كيد ضعيف قد أمدك الله تعالى في مقابله بمدد ضخم.

انظر إلى هؤلاء الصحابة عندما اعتمدوا على شيء من هذا المدد، **لم يكن للشيطان عليهم سلطان** رضوان الله تعالى عليهم، وكذلك عباد الله المؤمنين في كل آن ومكان ليس

للشيطان عليهم سبيل؛ لأن سبيل الشيطان سبيل ضعيف ، وكيده كيد أضعف، ولا يستطيع أن يؤثر على أهل الإيمان بما أعطاهم الله تعالى من ذلك المدد.

لقد قواهم الله تعالى و أمدهم بقوة منه فكيف يقوى عليهم الشيطان؟ لو نظرت إلى كيد الشيطان يمكن أن تذهبه بنظر العقل فقط وبأن تستعيذ من كيده، بأن تسير وراء النبي صلى الله عليه وسلم، بأن تصلي ركعتين ، بأن تقرأ بعض آيات القرآن الكريم إذا بك قد ذهب عنك هذا الكيد، **ولكنك مستسلم لهذه المخاوف وتلك الوساوس التي يوسوس بها الشيطان؛ ليضيع عمرك ووقتك وجهدك فيما لا يعود عليك بخير لا في الأولى ولا في الآخرة**، وأنت بعد ذلك تقول: من أين؟ وكيف أتحرك؟ ولا أستطيع ولا أجد، وتتعلل بهذه العلل التي تقعدك عن الله تعالى مع أنك كنت كما يقال "كالجن المصور" عندما كنت لا تعرف طريقا إلى الله تعالى، تستطيع أن تسافر وأن تمتحن وأن تعمل وأن تشتغل وأن تحمل وأن تذهب وأن تجيء وأن تقضي وأن وأن... أين ذهب ذلك أيها المؤمن؟

مع أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا على العكس من ذلك تماما بعد أن كانوا: لا قيمة لهم، ولا ذكر لهم، ولا شيء لهم في جاهليتهم إذا بهم رضوان الله تعالى عليهم بعد إيمانهم مع قلة العدد وقلة المؤونة وقلة العدة وجدناهم أقوى الناس، وأشد الناس بذلا، وأشد الناس سيرا، وأشد الناس في عطائهم وجهدهم لله تبارك وتعالى، لم نرهم على هذا الحال السيئ من لم يستطع منهم أن يفعل وجدنا عزيمته وهمته أقوى من عزيمة من فعل ومن أعطى!

وجدنا عزائمهم قد ارتفعت وهممهم قد قويت وأعمالهم صارت في أعلى عليين عند الله تعالى من القبول والإخلاص والسير وراء النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فكيف بك وقد بيّن الله لك طريقه ومدده وقوته تضعف عن ذلك؟ كيف بك وقد أعانك سبحانه وتعالى بذكره وصلاته وكتابه وتلاوته، وقد أعانك بالخلوة به والدعاء له والتضرع بين يديه، كيف تضعف عن أن تقوم بشيء من ذلك؟

إن العيب إذن كله إنما هو فينا؛ **قد وجدنا الطريق وتنكبناه، وجدنا الطريق ولم نسر فيه ولم نقم به حق قيامه، من الذي وجد نفسه وقد ضاقت عليه؛ فقام لله ليلة؟** أو أخذ يختم قرآنه؟ أو أخذ يدعو ويتململ؟ أو أخذ يقبل على ربه سبحانه وتعالى ويخلو به جل وعلا، ويبثه شكواه ويعلم أنه **إذا لم يحلها له سبحانه وتعالى فلن يحلها أحد، وإذا لم يرفع عنه لن يرفع عنه أحد، وإذا لم يقوه لن يقويه أحد.**

من الذي أقبل على ربه فوجد نفسه قليلاً في المال فبذل مالاً ليعطيه عليه أضعافًا مضاعفة، وجد نفسه قليل الجهد فبذل جهدا لله ليبارك الله له جهده الضعيف وقوته المحدودة بقوة الله التي لا حد لها، وبمدد الله الذي لا ينفد، من الذي قام بذلك؟ وكل فكره وهمه أن يرضي ربه سبحانه وتعالى، أن تكون أفكاره كلها في مراضي الله جل وعلا، وأن يقدم في ذلك كله الاستعانة بالله، والصبر على أمر الله، وتحقيق العبودية لله يود أن يسلم قلبه لله، أن يسلم عمله وبدنه وظاهره وباطنه ومحبته ونومه ويقظته وفكره وخلوته، ذلك كله لله تعالى.

قد علمت سكة النجاة وطريقها، ومع ذلك قد حُرمت ومُنعت بأعمالك وأفعالك ونواياك وهممك أن تقطع هذا الطريق إلى الله تعالى؛ عندما تعلم أنه قد استنار الطريق أمامك إلى الله تعالى، وقد اتضح ووجدت قوة الله تعالى ومدده، ثم إذا بك لا تحاول أن تأخذ شيئًا من ذلك ولا أن تستعين به تراك محرومًا أو لا؟ تراك مبعدًا أو لا؟ تراك لا

يريدك الرب جل وعلا في تلك الخدمة ولا ذلك السعي ولا ذلك العمل، لا يحبك في هؤلاء العاملين، ولا يحبك في هؤلاء السعاة، ولا يحبك في هؤلاء الواقفين أو لا؟ قد تركك وشهوتك وتركك ودنياك وتركك وآمالك العريضة الطويلة في الدنيا من الزواج والولد والنساء والبيت والدابة والسفر والتحصيل والمال وكذا وكذا وكذا ، وتركك تلهو فيها؛ لم يحفظك إذ لم تحفظه سبحانه وتعالى، ولم يقوك إذ لم تكن سبب قوة هذا الدين والسير إليه، لم يقوك ولم يمدك بمدده؛ لأنك لا تستحق هذا المدد. إن ديونًا كثيرة لم تخرج منها، أقعدتك عن ذلك وحرمتك الخدمة لله !

قد ساق الله المواعظ لإهل الإيمان عاما بعد عام، بل في كل لحظة، نقول لهم: إن مسؤوليتهم عظيمة، وإنهم موقوفون ومسئولون أمام الله تعالى عن كل ذلك، وأنهم مطالبون أن يرفعوا البلاء النازل عن أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأن البلاء الذي نزل على غيرهم يوشك أن ينزل عليهم، إذا بنا كأننا ننفخ في رماد، كأننا نتكلم لأناس آخرين، أو نخاطب أشخاصا غائبين، أو نناقش الغافلين، لا نناقش ونكلم ونذكر ونعظ أهل الإيمان المتقين! **ما الذي يحمل على ذلك؟**

ذلك هو سؤال الحيرة والقلق الذي يتردد عليّ دوما: لماذا تكون استجابة الناس ضعيفة لكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم؟ لماذا لا يستجيبون لله وللرسول ولما يتلى عليهم من آيات الله والحكمة، مسارعين إلى الخير، متسابقين فيه، متنافسين فيه؟

ما الذي يحمل الناس على أن يسمعوا ثم لا يعملوا؟ وكأنهم لم يسمعوا شيئًا، وتمر أيامهم هكذا بغير أن يتزودوا زاد التقوى لله تعالى، أو بغير أن يترقوا إلى الله جل وعلا في سيرهم إليه بحيث يكون الرب جل وعلا أحب إليهم من كل شيء، وكذلك أن يكون

الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إلى المرء مما سواه من نفسه وأهله وولده ووالده والناس أجمعين، وأن يريدوا ما عند الله تعالى فوق إرادتهم شهواتهم وملذاتهم، أو فوق ما يؤثرون من هذه الحياة الدنيا، ما الذي يحملهم على هذا الضعف في أخذ كلام الله تعالى وكلام رسوله، وعدم التجاوب مع كل كلمة من كلامه سبحانه ومن كلام رسوله صلى الله عليه وسلم؟!!

لماذا لا يتذكر المرء عندما يسمع المواعظ والعبر التي تهل عليه من الله تعالى والتي ينبغي أن تنفع المؤمنين، وأن تؤثر في قلوبهم، وأن تحملهم على البكاء وعلى سرعة الاستعداد للرحيل وعلى العمل للقاء الله تعالى، ما الذي يحملهم على ذلك؟ لماذا يبقى قلبه كما هو جامدًا وعينه كما هي جافة، وأمله كما هو طويل في الدنيا؟ لماذا يبقى على هذا الحال من عدم التأثر، وإن تأثر شيئًا ما رجع إلى سابق عهده، وعاد سيرته الأولى: من الغفلة والبعد والانهماك في الدنيا، يقال له: كذا وكذا ثم إذا به يقول: نعم... ثم يخرج كما كان ليعافس الدنيا، وليختلط بأهلها، ولينهمك فيها، وليغفل بها عن الله جل وعلا، ثم بعد ذلك تطول فترته عن الله تعالى، ويضعف قلبه عن الرجوع مرة أخرى لله جل وعلا.

إذا ألزمناهم أن يحفظوا كلام الله فإذا بهم مقصرون، إذا سألناهم أن يطيلوا المكث في بيت الله فإذا هم يفضلون الشوارع والزيارات والائتناس بالخلق على الائتناس بالله تعالى، والبقاء في بيته؛ و:كأن بيته هو بيت كل تقي! إذا سألناهم أن يأتوا مبكرين ليحصلوا الجمعة فإذا بهم وكأنهم قد حلفوا بالله تعالى إلا أن يأتوا متأخرين! ، نقول لهم: ينبغي أن يتعلموا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يأخذوا هذا الدين بالقوة، أن يبذلوا له الجهد والوقت والمال والنفس والولد إذا بهم يأتون متأخرين، وإذا بهم مترددون،

يؤثرون الحياة الدنيا على سعادتهم التي هي في محبة ربهم ومحبة رسولهم، والتي هي في تعلقهم بالله وحسن توكلهم عليه؛ حتى يرفع رايتهم.

كان ذلك هو المتردد في نفسي، وكان هو الشاغل لها منذ زمن بعيد، منذ أن رأى المرء التقاعس والتكاسل من أهل الإيمان -السامع والمتكلم- ، فإنهم إن وجدوا فراغًا كان به، يتركون شيئًا منه لله تعالى، يحضرون به درسًا، أو يتعلمون فيه شيئًا؛ أما إذا لم يجدوا فراغًا وجاءتهم الدنيا وانشغلوا بها: بالمال، بالولد، بالزواج، بغير ذلك من أعمالها وأشغالها إذا بهم قد نسوا هذا الحظ القليل الذي كانوا يتركونه لله تعالى، وقضوا عليه وذهبوا بحظهم كله إلى الدنيا يتنافسون فيها، ويجمعونها !

والأسوأ من ذلك أن يفلسفون هذا الأمر بأنه لله، وأنه للآخرة، وأنه ينبغي للمؤمنين أن يكونوا أقوياء وأغنياء، أو أن يكونوا كذا وكذا مما نسمع من هذا الهراء وهذا الكلام الفارغ الذي لم يكن عليه الصحابة رضوان الله عليهم.

بعد هذا القدر من تصوير هذا السؤال الذي يحير المرء، تُرى ما الذي يحملهم على ذلك ؟

أولاً : إيثار الدنيا والدوران في فلكها

السبب الأول الذي يظن المرء أنه المحور الرئيسي لذلك هو انشغالهم بالدنيا وركونهم إليها ونسيان الآخرة، لأن الدنيا هي التي تدور حولها اهتمامات الناس، لا أظن أن اهتمامات أحد وأفكاره -إلا من رحم الله تعالى- تدور حول مراضي الله تعالى ومحابه، بقدر الدرجات العلى أو بقدر النجاة، وإنما تدور حول كيف يكون شيئًا ما في الدنيا له قيمته الأدبية والاجتماعية والمالية وغير ذلك، أو على أحسن حال تشوبه أحوال الدنيا.

إن الله تعالى وضح لنا هذه الصورة من عدة جوانب، وهي صورة الانهماك في الدنيا والعمل لها والمنافسة فيها والتعارك عليها والغفلة عن الآخرة؛ وقد ذكر المولى سبحانه وتعالى مع الآيات التي جاء القرآن الكريم بها في ذم الدنيا ذكر قضية الآخرة وتفضيلها؛ فقال مثلاً: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠] فبعد أن صور الدنيا، وبين قيمتها وحقارتها ودناءة شأنها، وأن المتنافسين عليها يتنافسون على الدني الزائل والحطام الفاني؛ بَيَّنَ علو الآخرة وعظم شأنها وشرف خطرها؛ فقال:﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ .

وكذلك لما قال: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ بين لهم قائلًا: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أنتم تؤثرون الحياة الدنيا.

إن إيثار الدنيا، وترتيب المرء لمواعيدها وارتباطتها المزعومة ومشاغلها الفارغة هي المانع للمرء من الانشغال بالآخرة؛ مثال لذلك: نقول للمرء: يوم الجمعة لله تعالى، تخبئه لربك، وتملأه بالعمل الصالح؛ لتنتظر جزاء ذلك عند الله تعالى. فيقول لك: عندي ميعاد وأهلي وولدي، وهذا اليوم الوحيد الذي نلتقي فيه، والأسرة والأكل والعزائم وغير ذلك مما يحتج به المرء!

يوم الجمعة هو يوم الرب جل وعلا، والاستعداد للمغفرة وقبول التوبة، وتكفير السيئات «**الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما إذا اجتُنبت الكبائر**»[1]، والمؤمن ينتظر هذا اليوم بفارغ الصبر؛ ليكفر الله عنه سيئاته وذنوبه، ويعود شيئًا جديدًا في أسبوعه القادم بغير سيئة يود أن يبدأ صفحاته بما يحب الله تعالى ويرضيه، هو اليوم الذي ينبغي أن يفرغه المرء لربه، وأن يوقفه كله لعبادته، وأن يقوم فيه لله تعالى متفكرًا في آخرته وما هو مقدم عليه من أمر الله، وأن يتوب فيه ويحاسب نفسه، وأن يخرج من ذنوبه وأن يخرج من مظالمه بينه وبين الله وبينه وبين الخلق، فإذا بالمرء يأخذ هذا اليوم للتنزه والأهل والأقارب. وإذا قلت له ذلك يقول لك: ليس في الأسبوع إلا هذا اليوم الذي يزور فيه المرء أرحامه، أو يفعل كذا وكذا.

ثم يأتي السؤال: **هلا تركت يومًا آخر لآخرتك تقوم فيه بتلك الأعمال التي تستوجب المغفرة، وتستلزم التوبة ويعود فيها المرء وقد تخففت خطاياه وذنوبه**؛ ليبدأ أسبوعًا جديدًا يحاول أن يجاهد نفسه أن يكون هذا الأسبوع أقرب فيه إلى الله، وأحب فيه إلى الله، وأشد تعلقا بالله تعالى؟ لم يفرغ شيئًا لآخرته، ولا هو يذكر ذلك، وإنما شغلته هذه الحياة، فآثر أن يذهب وأن يتنزه وأن يزور وأن يأكل وأن يشرب على آخرته !

لذلك: الله تعالى يقول: ﴿ **وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا** ﴾ [القصص: ٦٠] والمعنى: كل شيء تحصلونه في هذه الحياة إنما هو متاع يعني: شيء قليل

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٣٣) ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الصَّلَاةُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ).

يتمتع به المرء وينقضي، وهذا معنى المتاع، يعني: بهاؤها وخضرتها وصورتها الجميلة، ثم يقول: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟

هذه إذن أحد أسباب المشكلة: أنهم لا يعقلون ذلك، تراهم لا يعقلون أن الحياة الآخرة أفضل من الدنيا وأن إيثار ما عند الله أعظم من إيثار ما عند أنفسهم؟

إن إيثار هؤلاء لحظوظهم من هذه الحياة الدنيا على ما عند الله تعالى كان السبب في اضطرابهم في الدنيا وخوفهم عليها والقلق من زوالها أو من حصولها وكان ذلك سببا في محاولتهم الأتناس بالخلق، والذهاب إليهم وادخار المال لتحصيل أمور دنياهم! فإننا لم نعلم أن أحدا يحاول أن يجمع مالا أو أن يحصل مالا لينفقه في الآخرة! إن هؤلاء لا يعقلون أنهم **إن آثروا الله تعالى؛ فإن الله تعالى يؤثرهم، و إن آثروا ما عند الله؛ فإن الله يعوضهم أفضل مما بذلوا !**

ثانيًا: قلة التوكل على الله

وهو السبب الثاني الذي يمنع أهل الإيمان من الاستجابة؛ وهناك آية قريبة من الآية السابقة توضح هذا المعنى؛ تقول: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشورى: ٣٦] الأولى قال: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، وفي الثانية قال: ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ يعني: لا يعلم أن ما عند الله خير له إلا هؤلاء المؤمنون المتوكلون على الله تعالى؛ لأنهم إذا لم يتحققوا بالتوكل على الله جل وعلا والركون إليه، واستناد القلب إليه تجدهم مضطربين خائفين إن هم آثروا الآخرة أن تفوتهم الدنيا، أو إن هم آثروا ما عند الله تعالى لا يحصلون ما يريدون من هذه

الحياة الدنيا، يقول: إن بقيت أو إن فعلت كذا في المسجد، أو إن بذلت مالاً للآخرة، أو وقتًا أو غيره، يوشك ألا يجد وقتا ولا جهدا ولا مالا ليحصل به حظوظه من الدنيا.

لذلك بين الله تعالى أن هذه الحالة الحسنة إنما هي للمتوكلين على الله تعالى التوكل الكافي الذي يجعل قلبهم مستقرا إلى ربهم مرتكنا إليه غير خائف من المستقبل، يؤثر ما عند الله على هواه وعلى ولده ووالده والناس أجمعين، ويعلم حينئذ أنه إن آثر ربه سبحانه وتعالى على ذلك كله آثره الله عليه، فصار من أولئك الذين قدمهم الله تبارك وتعالى ورزقهم وفتح عليهم وعوضهم، وأخلف عليهم، صار من هؤلاء الذين يعلمون أن الله قد ضمن لهم أرزاقهم، وضمن لهم بركتهم في هذه الأرزاق، وضمن لهم كل شيء يمكن أن يخافوا عليه إن هم آثروا ربهم جل وعلا، لذلك يقول في الآية الأخرى: ﴿ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الجمعة: ١١].

والسؤال المترتب على ذلك: **تراك تنفق شيئًا لله من وقت أو جهد أو غير ذلك والله لا يعوضه عليك، والله لا يخلف عليك بأحسن منه وأكثر منه؟** هل بذلت إذن لله تعالى ؟ أم إنك أيها الإنسان المسكين قد وصل بك الحال إلى الخوف على ما أنت فيه جراء أن تقع في شيء تخاف منه، مع أنه سبحانه وتعالى كما قال النبي: «**تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى وأسد فقرك**»[1].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٦) ورواه الحاكم (٤٨١/٢ رقم ٣٦٥٧) ، وقال : صحيح الإسناد . وصححه ابن حبان في صحيحه (١١٩/٢ ، رقم ٣٩٣) .ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ مَلَأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ). وقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

يقول له: «تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى» قلبك أيها الإنسان ممتلئ بالفقر والمسكنة، ولا يملأه غنى إلا الله إلا معرفته ومحبته، وإيثاره على كل شيء سبحانه وتعالى، وإلا بقي هذا القلب ممتلئا من هذه الحاجة، ممتلئا من ذلك الفقر، ممتلئا من هذا التطلع إلى ما يحاول أن يغنيه به، أو أن يقويه به؛ تراك لو علمت أن ما عند الله خير، وأن ثواب الله تعالى أعظم، وأنه يعوضك في الحال، وأنه إذا لم يعوضك في الحال عوضك: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين: ٦] .

ها قد علمت أن الدنيا على هذا الحال الذي وصف الله تعالى، وعلمت شرف الآخرة، وحينئذ ينبغي للعاقل أن يقدم الآخرة على الدنيا ويؤثرها، بعد أن سمع الموعظة وسمع التذكرة، وسمع كلام الله، وسمع كلام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ورأى الصحابة المكرمين وكيف إنهم رضوان الله تعالى عليهم قد تركوا الدنيا كلها لله؛ فعوضهم خيرا منها، ورفع مرتبتهم و رايتهم في الأولى، ثم هم يوم القيامة رفقاء النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة.

إن لم تؤثر الآخرة على الدنيا فكأنك لا تعقل، وكأنك تتشكك في أمر الله جل وعلا، عندما يقال لك ذلك فإذا بك تقول: من أين يأتي الرزق؟ السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، وإذا لم يتحرك المرء ويعمل ويشتغل فلن يحصل ولن يدخر ولن يفعل كذا وكذا !

وكأننا نقول له: لا تعمل ولا تشتغل! لا، نحن لا نقول ذلك، ولكن معنى: «تفرغ لعبادتي» يعني: **فرغ قلبك لعبادة الله تعالى ؛ حتى ولو كنت تحصل رزقك ومعاشك في الدنيا،** لا يكون قلبك وبدنك منغمرا فيها منشغلا بها قد ذهب مع الدنيا ونسي الآخرة ونسي لقاء الله تعالى ، وإنما قلبك متعلق بربك تأخذ بالأسباب الشرعية التي أمر الله

تبارك وتعالى بها كما قال: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧] فهل تراك أيها المسكين لا تصدق بثواب الله؟ ولا تصدق بعظم هذا الأجر من الله؟ ولا تصدق أن الله تبارك وتعالى يخلف عليك أعظم مما بذلت وأعطيت؟

نعود فنقول: ما الذي دفعك إلى أن تؤثر الشارع والولد والمال على الله تعالى؟ وما الذي جعلك تبخل بأن تبذل وقتًا وجهدًا ومالاً لله تعالى؟ وما الذي حملك على أن تكون المتأخر في الصفوف إلى الله تعالى؟ وما الذي حملك على ألا تتأثر بالموعظة فتسمعها من هنا وتفوتها من هنا كما يقولون؟ ما الذي حملك على ذلك؟ !!

تراك لو كنت مؤمنًا حقًا، متوكلاً حقًا، تخشى ربك وترجوه، وتعظم أمره ونهيه سبحانه وتعالى، تفرط فيما يقربك إليه، ويحببك فيه ويأخذك إلى بابه سبحانه وتعالى؟ تراك لو عظمته وامتلأ قلبك من حبه وركنت إليه واطمأننت إلى ذكره ونزلت سكينته في قلبك تراك تستبدل به شيئًا غيره؟ لا يكون ذلك أبدًا.

ثالثًا: الغفلة عما عند الله تعالى

وهي السبب التالي، فأنت غافل عما عند الله، كأن حالك عدم التصديق وعدم المبالاة؟ لا تستعظم ثواب الله تعالى، لا تقدر محبة الله، لا تقدر يقينك على الله وركونك إليه، لا تعظم شيئًا من ذلك، لا تعظم تلك المحبة ولا يمتلئ بها قلبك لله تبارك وتعالى، **تراك لو امتلأ قلبك من محبته سبحانه وتعالى كنت تتأخر عليه؟** من أحب أحدًا في الدنيا

لا يتأخر عنه، وتخف أشغاله عليه، ويجاهد أن يراه في كل وقت ويقوم على خدمته وهو منشرح الصدر وهو محب لهذا الحال لا يمل منها ولا تشق عليه!

لعلك تسأل هذا السؤال الذي نعاني منه اليوم؛ **من أين آتي بالوقت لأفعل ذلك الذي تدعي؟**

وهذا السؤال فيه مغالطة كبيرة من وجهتين:

الوجهة الأولى: أنك أيها المسكين لا بد أن تعلم أن الوقت هو من فضل الله تعالى الذي يتفضل به على عباده، وأن هذا الوقت إذا توكلت على ربك وآثرت ربك وقمت على خدمته فيه؛ بورك لك في هذا الوقت؛ لأنك إذا حسبت وقتك لله تعالى، وحسبت وقتك للدنيا ستجد أن وقتك لله تعالى مظلومًا مع وقت الدنيا! من الذي قسم يومه ثنتي عشرة ساعة لله، وثنتي عشرة ساعة لنفسه وأهله وشغله؟ من الذي قسم هذا الوقت وحاول أن يمشي عليه ووفَّى بهذا الوقت لله، ووفَّى بهذا الوقت لنفسه؟

إذا نظرت وجدت نفسك تضيع وقتا طويلا في غير ما يعود عليك بنفع في الدنيا ولا بنفع في الآخرة، وجدت نفسك تضيع وقتا في أكلك وشربك ودخولك الخلاء، وتضيع وقتا في الكلام والاستئناس بالخلق، تضيع وقتا طويلا في ألا تحصل به شيئًا يعود عليك نفعه! على خلاف عادة السلف من تعظيم قيمة الوقت.

حاسب نفسك فعدم المحاسبة هو الذي أوقعك في ذلك، فإذا حاسبت نفسك، رأيتها في نهاية اليوم لم تفعل شيئًا لا في الدنيا ولا في الآخرة! أليس كذلك ؟ إن كنت تعمل في الدنيا تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله لم نفعل اليوم شيئًا، وترى أحوالك في الآخرة فتقول: ولا حول ولا قوة إلا بالله لا دنيا ولا آخرة !!

وهذا كله من عدم عناية الله تعالى بك، ومن ارتفاع توفيق الله تعالى عنك، ولو وفقت وأعانك الله تعالى وكنت مهموما بأن يكون وقتك لله جل وعلا تنزل عليك بركة الله تعالى، وأحاطتك عنايته، وذاد عنك المولى سبحانه وتعالى؛ فتقوم بالأشغال الطويلة في الوقت القليل، وتقوم بالأشغال الصعبة التي لا يقوم لها أحد في وقت أقل وهكذا تجد البركة وتجد النماء وتجد الرحمة قد أحاطتك. وانظر إلى صحابة النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك، كيف فتحوا الدنيا وفعلوا كل ذلك في هذا الوقت القليل؟

وتنزل عليك البركة في وقتك لأمرين؛ الأول: أن تود أن يكون هذا الوقت لله تعالى، الثاني: لأنك مهموم وحزين ألا يضيع هذا الوقت عليك في غير رضا الله تعالى؛ لأن الله تعالى لو رآك حزينا مهتما بألا يضيع وقتك إلا في رضاه؛ فإنه يعينك على أن يكون الوقت في رضاه سبحانه وتعالى،ويبارك لك فيه حتى يرضى عنك جل وعلا، ويرفع عنك مشاقك ومتاعبك التي تمنع أن يكون وقتك لله جل وعلا.

الوجهة الثانية للمغالطة هي: أنه ينبغي أن تكون **حال شغلك مشغولا بالله تعالى** ؛ فتظل حال عملك، حال مذاكرتك، حال سعيك، حال سكونك وحركتك، متعلق القلب بالله، مقبلا عليه، موصولا به سبحانه وتعالى، ساعتك من أولها إلى آخرها إنما هي لله، فإن ظهرت عليك هذه الحالة الحسنة إذا بوقتك كله لله سواء كنت في أشغال الدنيا فأنت مشغول بذكره، أم كنت في أشغال الآخرة كذلك أنت مشغول بذكره وخدمته وازددت اقترابا منه وتفرغا له سبحانه وتعالى، وهي الهيئة التي ننساها وهي الحلية التي لا نتحلى بها، بل لا نتفكر فيها !

جرب إذن أن تشغل وقتك بالله تعالى **لترى البركة وقد حلت عليك**، وترى وقتك وقد اتسع لأعمال الدنيا والآخرة، جرد وقتك ليكون الذكر هو الغالب عليه **حتى تحصل ذكر الله تعالى لك** كما قال: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢] فإذا ما ذكرته ذكرك، بل ما ذكرته إلا بذكره إياك قبل أن تذكره سبحانه وتعالى، فإن ذكرك الله تبارك وتعالى فماذا تريد أيها المسكين؟ إن ذكرك ربك في ملأ خير من ملئك، أو إن ذكرك ربك في نفسه فماذا تريد بعد ذلك؟ **فإن تمسكت بهذا الذكر وداومت عليه يوشك أن تكون مذكورا في الملأ الأعلى، والمذكور في الملأ الأعلى مبارك الوقت والجهد والمال والولد، والصحة والفراغ وغير ذلك**، كل ذلك داخل في بركة الله له سبحانه وتعالى.

أما إذا آثرت دنياك ووقتك ولعبك ومالك وولدك كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩]، وآثرت بقية تلك الأحوال المهينة السيئة على أن تكون أقرب إلى الله؛ فإنك مخالف بذلك لما تريد من الدنيا، وقاطع على نفسك ما تريد من الآخرة ، خاسر فيهما معا.

يعني: إن أردت الدنيا أيها المسكين فإنك تحوزها بالإقبال على الله تعالى كما قال: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٤].

يعني: من كان يريد ثواب الدنيا ومهمومًا بها وحاله على القلق والاضطراب والخوف على اليوم والمستقبل وضياع المال ونفاده، أو على تحصيله وادخاره فاطلب وجه

الله تعالى فإنك تحصل الدنيا ولكن على الطاعة وعلى المحبة، وكذلك تحصل الآخرة على أحسن حال.

فعندما تقول ليس هناك وقت وليس هناك جهد للصلاة وللجمعة وللعلم وللبذل لله تعالى، فهل تجد الوقت والجهد لتحصيل الدنيا والمعاركة فيها والسير إليها والمنافسة على تحصيلها؟ ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم: ٢٢] تلك إذن قسمة جائرة، أن تكون كذلك وتريد بذلك وجه الله تعالى؟ ليس عندك وقت تعبد الله تعالى فيه، وعندك وقت للدنيا تفرغه لها وتريد بذلك أن تكون مؤمنا تقيا!!!

إنك بذلك كمن يقول: أنا ليس عندي وقت أعبدك فيه وأتقرب إليك به، وأسارع في الخير لك وأتنافس في طاعتك وقرباتك... فقربني إليك يا رب يا كريم !

هذا هو الوضع الذي نحن فيه اليوم؛ لذلك **هو حال أقرب إلى الهزل منه إلى الجد، حال أقرب إلى الكسل والتواني منه العزم والصدق.**

والنقطة التالية الخطيرة نسوقها لهؤلاء الذين يؤثرون الدنيا ويؤخرون الآخرة هي:

هل ملكت قلبك أن يتحول إلى الله تعالى عندما تريد، وأن تغير المؤشر من أمور الدنيا إلى أمور الآخرة؟.. وكأن القلب هذا آله يمكن بسهولة أن تحركها كما شئت إن أردت الآخرة أتيت بها، وإن أردت الدنيا أتيت بها ! كلا ليس ذلك في ملكك ولا تستطيعه، فهذه القلوب بيد الله تعالى، فإن تحققت بأسباب القلب السليم حوَّل الله تعالى لها كل شيء، وحولها المولى جل وعلا إلى محبته ورضوانه.

إن عدم تأثر القلب بالذكرى والموعظة من الأمور التي ينبغي أن تكون من مسؤولية المؤمنين وأن تكون من اهتمامهم، أن تكون امرءًا لا تسمع ولا تعقل كلام الله تعالى ولا كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وأن تكون الشهوات والغفلة هي المؤثرة على قلبك وهي الموجهة لك في طريقك إلى الله تعالى هذه هي المصيبة التي يجب على المرء أن يبادر إلى التخلص منها، وأن يسارع إلى أن يكون قلبه حيًا لو كان قلبًا سليمًا مخبتًا حيا لتأثر بذلك، ولكان سرعة الخروج من الدنيا والرحيل منها ودنو الموت مؤثرا في هذا القلب إلى الدرجة التي يسارع فيها إلى الله تعالى، ويعد فيها جهازه الذي يستقبل به ربه.

وكذلك عندما يكون مستعدا محبا للقاء الله تعالى؛ تذهب عنه غفلته، ويذهب عنه ما هو فيه من التكاسل والتواني عن أمر الله تعالى وعن تحقيق أسباب نجاته، ويستيقن في الله تعالى أن ما عند الله هو الباقي له.

إن لم تستعن بالله تعالى وبقيت على العجز والكسل؛ فإنه لا مفر.. ستبقى القلوب كما هي..

بل ستزداد سوءًا كما هو الواقع الذي نحياه اليوم؛ لأنك إما أن تهتم بالآخرة وتعمل لها عملها وأنت مؤمن، وإما أن تهتم بالدنيا، فإن ازدادت أسهم الدنيا في قلبك وزادت في الدنيا أشغالك وأعمالك واهتماماتك، ثم توسعت بعد ذلك شهواتك ومتطلباتك أنت ونفسك وأهلك وولدك؛ فإنك لا تجد ما يتبقى في هذا القلب لأعمال الآخرة، وإن تبقى شيء لتعمل فيه أعمال الآخرة في هذا القلب يكون شيئًا ضعيفا قليلا لا يساعد هذا القلب على القيام لله تعالى.

وهذا هو السبب في أنه لا يستطيع بهذا الحال السيئ أن يقوم لله تعالى، وإن قام يومًا أو يومين وجدته سريع الرجوع، سريع النكوص، سريع التقهقر والرجوع يفقد حلاوة الإيمان وأعمال القلب وصدق الطلب وإخلاص القصد لله جل وعلا.

هذا هو الواقع مع زيادة أن هذه القلوب ضعيفة إلى الدرجة التي لا تستطيع فيها أن تقاوم أمراض الشهوة وأمراض الدنيا وأمراض التطلع والانشغال وأمراض الغفلة وغير ذلك من تلك الأمراض، فإن أصيب بغفلة طالت الغفلة، إن أصيب بشهوة يصعب عليه أن يتخلص منها، إن أصيب بانهماك في الدنيا غرق فيها ولم يخرج من هذا المستنقع، ويحاول أن يخرج منه فلا يستطيع إلا بجهد جهيد يكون قد قضى فيه وقتا لغير الله، وجهدًا لغير الله، ومالا لغير الله، وصحة لغير الله؛ حتى ضعف عما هو لله سبحانه.

وقد لا يخرج إلا أن تأتيه المواعظ الصعبة من المصائب والآلام، حينئذ يلتفت يمينًا وشمالاً **فلا يجد إلا طريق الله فيحاول أن يعود إلى هذا الطريق، فيعود إليه مضطرًا**، لا يكون هو الطريق المنير إلى الله تعالى؛ لأنك قد رجعت مضطرًا إليه، لم ترجع محبا إليه مقبلا عليه خادمًا فيه تود أن يكون هذا الطريق هو ملء نفسك وروحك وقلبك، الذي ترى فيه لذتك وسرورك ونعيمك وقرة عينك.

هذه الحالة المستعصية هي التي أرقت المرء وحيرته: ما الذي يحمل هؤلاء الضعفاء الفقراء المحتاجين إلى الله تعالى أن يعرضوا عن الاتعاظ بمواعظ الإيمان ؟ نحن محتاجون إليه وفقراء إليه ومساكين لا نملك لأنفسنا دفعًا ولا نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا نملك من أمر قلوبنا شيئًا، ولا من أمر أعمالنا شيئًا، وأنه

سرعان ما تنقلب أحوال المرء لا يستطيع أن يمسكها، وأن تتدهور أحواله لا يستطيع أن يوقف هذا التدهور الذي يمكن أن يحل به، أو أن ينزل عليه..

وفي نفس الوقت هؤلاء الفقراء المساكين الضعفاء البؤساء محتاجون إلى ربهم؛ ليقويهم وليرزقهم وليعطيهم وليمنحهم سبحانه وتعالى، وليأخذ بأيديهم، وليقضي لهم أعمالهم وأشغالهم، وليفك عنهم كربهم ونوازلهم، ولينفس عنهم ما هم فيه، ومع ذلك هم معرضون وواثقون في الدنيا والمال والقوة وغير ذلك من أنواع الجاه في هذه الحياة الدنيا، واثقون في أن ذلك يمكن أن يحل لهم مشاكلهم، وأن يرفع عنهم نوازلهم، وأن يمكنهم فيما هم فيه!

أيها الفقراء المساكين: لماذا هذا الحال الذي نحن عليه؟..

لماذا يبقى المرء أسير هذا الشك في الله تعالى، وأسير ضعف الثقة في الله تعالى، وأسير عدم التوكل على الله تعالى..

تراك إن توكلت عليه ووثقت فيما عنده تركك؟ لم يعطك ما تريد؟ أو أنه لا يقوى على ما تريده أنت والدنيا والآخرة؟ أو أنك تستوثق بما في يدك عما في يد الله؟ وأنك بما في يدك تظن النجاة به، عما في يد الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٨٠] ؟

رابعًا: الاتكال على عفو الله تعالى

تراك متكلا على عفو الله تعالى؟ هل يصح ذلك، بعد أن قصرت في حقه وفي حق دينك ونبيك وإسلامك، وآثرت الدنيا والمال والأهل والولد، هل لك بعد ذلك أن

تتمنى على الله الأماني، وتتمنى على الله تبارك وتعالى أن تكون من المؤمنين المتقين، وأن تحصل الآخرة !!!

ترى هل أحوالك الظاهرة - التي تخدع بها الناس - في أنك تريد وجه الله تعالى والدار الآخرة قد خدعتك؟ كلا؛ لأنك قد حسمت أمرك ابتداء وقلت لله تعالى: ليس عندي وقت ولا جهد ولا بركة ولا صحة لأن أحصل أعمال الآخرة التي يتكلمون فيها، وأنا أريد أن أكون تقيا مؤمنا، لأنك تكون ساعتها كمن يقول: أنا ليس عندي وقت للمذاكرة والمراجعة وكذا وكذا وأريد أن أنجح آخر العام !!

إن كل أحد متكل على أن الله غفور رحيم، بدليل أنه لو فاته شيء من الدنيا، أو كسر له شيء في الدنيا، أو حدث له حادث في الدنيا وجدته حزينا متألما حتى لو كان يقول: الحمد لله، الشكر لله، ما جاء به الله سبحانه وتعالى هو الخير، وما حدث هو قضاء الله تعالى وقدره وكذا وكذا كل ذلك كلام في الظاهر لا قيمة له في الباطن، لا قيمة له في باطنك الحزين على الدنيا التي تبكي عليها بقلبك وإن لم تبك عليها بعينيك!

ومع ذلك: أنت في نفس الوقت لا تبكي هذا البكاء على ضياع أمور الآخرة..

متى ضاع وردك من الآخرة فحزنت عليه؟ ومتى ضاعت ليلتك من الله تعالى وحظك من القيام فأصبحت حزينا كئيبا قلقا تود أن تعوض ما فاتك؟ متى حزنت على حظك من القرآن والصيام والذكر؟ ومتى حزنت على تأخيرك وتراجعك وتكاسلك وتوانيك؟ ومتى حزنت على آفات نفسك وطلبك الشهوات والملذات وتضييع الوقت، لم تبك على تضييع وقت في الآخرة، ولا على مال لها، ولا على عمل لم تقم به فيها لله سبحانه وتعالى؟..

متى أيها المسكين بكيت على آخرتك كما بكيت على دنياك وتأسفت عليها كما تأسفت على دنياك؟.. متى؟ ..

وسبب هذا الاتكال الذي قد أضاع أعمال المرء هو: **طول الأمل في الدنيا**، وهي من أخطر المسائل التي أفسدت القلوب وما زالت تفسدها وما زال الشيطان يدندن حولها ليدمر البقية الباقية من إيمان أهل الإيمان!

كيف يحدث ذلك؟ مثلا إذا عاهد المرء نفسه أنه سيجلس في المسجد ليذكر الله تعالى ويتوب إليه ويبدأ عهدا جديدا مع الله تعالى. إذا به يقول: دع اليوم، إن شاء الله أبدأ من الجمعة القادمة، إن شاء الله تعالى سأرتب نفسي وأؤخر زياراتي وكذا وكذا وإن شاء الله سوف أبدأ، وكل أحوال المرء على هذا الحال: سأبدأ عندما ينتهي هذا الشغل، عندما أرجع من السفر، عندما يخرج الولد من الامتحان، عندما يأتي كذا، عندما يأتي كذا، عندما ينتهي كذا، وكل ذلك إن انتهى فُتح غيره، وما كانت الدنيا إلا كذلك: أن تنقضي منها شغلة، فتفتح فيها عشر شغلات، ثم لا تنقضي هذه الأشغال أبدا.... متى انقضت هذه الأشغال أيها المسكين ورأيت نفسك قد تفرغت للآخرة؟ متى انقضت؟ متى جاءت الدنيا إليك وقالت: إنك امرؤ صالح اذهب إلى الآخرة واعمل لله، وحاول أن تجتهد في بقية أيامك لعله لا يكون لك يوم آخر كما قال الله تعالى:

﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ ﴾ [الحشر: ١٨] ؟..

أتقول لك الدنيا هكذا !!!

النبي ﷺ يقول: «من أصبح آمنا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه فقد حيزت له الدنيا» [1] **ماذا يريد المرء بعد ذلك ليعمل للآخرة التي توشك أن تأتيه بغتة بأن يصبح فلا يمسي، أو أن يمسي فلا يصبح**، ومع إيمانه بذلك وأنه يمكن أن ينتقل إلى الله تعالى في أي لحظة إذا به يقول: إن شاء الله غدا فقط! هذه الليلة تمر علي وإن شاء الله من غد ستجدني تحت يدك! وإن شاء الله سأبدأ، وإن شاء الله سأقرأ، وإن شاء الله سأختم، **وكأنك مستدرج في هذه الدنيا يملي لك المولى**؛ لأنك محروم، ولأنه لا يحب أن تقف على بابه، وأن مثلُك يؤخَّر كما أخرَّ نفسه: لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله تعالى.

فهذه الأحوال شيء مما يعتمل في قلب المرء من أسباب تأخر المؤمنين عن الاتعاظ بالمواعظ، فهذا شيء من أحوالنا التي ينبغي إصلاحها، والتي هي سبب سؤال الحيرة الذي ابتدأنا به وهو: ما السبب في عدم الاتعاظ؟ ما السبب في عدم التذكر؟ ما السبب في أن يسمع الموعظة ثم يعود سيرته الأولى؟ ما السبب في أنه لم يكن من أبناء الآخرة وترك بنوة الدنيا وأبوتها؟ ما السبب في أنه لم يصمد قلبه ويركن إلى الله تعالى ؟

والسؤال التالي: إذا كانت الموعظة لم تؤثر، ولا ينتفع بها المرء فكيف يستجيب المرء لله وللرسول إذا دعاه لما يحييه، كما قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦) ورواه البخاري في الأدب المفرد (١/١١٢ ، رقم ٣٠٠) وصححه ابن حبان في صحيحه (٦٧١)، و قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٨٩): رجاله وُثقوا على ضعف في بعضهم. ولفظه (عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا). وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ [الأنفال: ٢٤]، هذه الاستجابة إذا لم تتحقق فنحن نتكلم في الهواء وننفخ في القربة المقطوعة ونؤذن في مالطة، إذا لم تتحقق هذه النوايا الآن، وإن لم يجاهد المرء ليخرج من هذا القيد وتلك السلاسل التي سلسل بها نفسه؛ فإنه لن يخرج.. سيبقى على هذا الحال الذي هو عليه منذ سنين.

إن المرء بأحواله هذه - كما يصور ذلك ابن القيم[1] - كأنه في طريق سيره إلى الله تعالى يصعد الجبل، هو يريد أن يصعد إلى قمة الجبل؛ فيأتي الشيطان ويقف له ويعترضه حتى يرجعه مرة أخرى، ، ثم يحاول مرة أخرى أن يصل إلى قمة الجبل فيأتي إليه الشيطان والنفس والهوى والركون إلى الدنيا ومحبتها والشهوات والولد والمال وراحة النفس والجسم وكذا وكذا... فيرجعه مرة أخرى.

---

(١) يقول ابن القيم في مدارج السالكين: « إن النفس جبل عظيم فى طريق السير الى الله وكل سائر لا طريق لـــه الا على ذلك الجبل فلابد ان ينتهى اليه ولكن منهم من هو شاق عليه ومنهم من هو سهل عليه وانه ليسير على من يســـره الله عليه وفى ذلك الجبل اودية وشعوب وعقبات ووهود وشوك وعوسج وعليق وشـــيرق ولصـــوص يقتطعون الطريق على السائرين ولاسيما اهل الليل المدلجين فاذا لم يكن معهم عدد الايمان ومصابيح اليقين تنقد بزيت الاخبات والا تعلقت بهم تلك الموانع وتشبثت بهم تلك القواطع وحالت بينهم وبين السير فـــان اكثـــر السائرين فيه رجعوا على اعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته. والشيطان على قلة ذلك الجبل يحذر الناس من صعوده وارتفاعه ويخوفهم منه فيتفق مشقه الصعود وقعود ذلك الخوف عليه قلته وضعف عزيمة السائر ونيته فيتولد من ذلك الانقطاع والرجوع والمعصوم من عصمه الله. وكلما رقى السائر فى ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع وتحذيره وتخويفه فاذا قطعه وبلغ قلته انقلبت تلك المخاوف كلها امانا وحينئذ يسهل السير وتزول عنـــه عوارض الطريق ومشقة عقباتها ويرى طريقا واسعا امنا وعليه الاعلام قد اعدت لركب الرحمن.فبين العبد وبين السعادة والفلاح قوة عزيمة وصبر ساعة وشجاعة نفس وثبات قلب والفضل بيد الله يؤتيـــه ن يشـــاء والله ذو الفضل العظيم فالنفس امارة بالسوء داعية الى الهالك طامحة الى الشهوات ولذا فهى ايضا جسر لابد من عبوره » مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين- الجزء الثاني - دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية.

المشكلة التي نحن فيها اليوم هي أننا لم نعزم بعد أن نصل إلى قمة الجبل، **متى وصل إلى هذه القمة وقطع هذه المسافة التي لم يقطعها بعد في طريقه إلى الله تعالى وجد الطريق فسيحًا منيرًا متسعًا إلى الله تعالى.**

فنحن واقفون في هذه العقدة التي لم تحل بعد وهي: كيف نتغلب على هذه الحال التي نحن فيها فينفتح الطريق أمامنا إلى الله تعالى.

هذه العقدة التي حاولنا أن نتخطاها إذا بنا نرجع مرة أخرى، تتكالب النفس والشيطان والهوى فنرجع، ثم نعاود فنرجع ثم نعاود فنرجع ... لم يصمد ولم يثبت أحد ليصعد هذه القمة ليجد الطريق واسعا أمامه ، إلا من رحم الله تعالى.

هذه هي العقدة التي نحن فيها: عقدة إيثار الدنيا على الآخرة، عقدة الميل مع الشيطان والهوى، عقدة الركون والإخلاد إلى الأرض، عقدة الغفلة ونسيان الانتقال إلى الله تعالى، عقدة التفريط في محبة الله تعالى وتحمل كل المشاق في سبيل أن يقطع هذه المسافة التي ما أن يقطعها المرء حتى يتضح الطريق أمامه ويسهل إلى الله تعالى.

متى يحل المرء عقدته مع نفسه وولده، ومع وقته وجهده، ومع صلاته وعبادته، مع توبته، مع طول أمله، متى يقول: لا أمل، لا ولد، لا دنيا، لا مال، لا نفس، لا كذا لا كذا سيقف ويثبت؛ حتى يأخذ المولى تعالى بيده "ويُعدِّيه" هذه النقطة التي قد وقفت دون الوصول إليه سبحانه وتعالى.

والسؤال التالي: ماذا ينبني على ذلك؟..

ينبني على ذلك أمران:

الأمر الأول: أن يتحمل المرء مسؤوليته فيسير في الطريق الذي سار فيه النبي صلى الله عليه وسلم وحدده له المولى سبحانه وتعالى **وهو طريق المجاهدة، وهو الطريق الذي يعبر به هذه العقدة ويواصل السير إلى الله تعالى،** عازما على عدم الرجوع، تائبا إلى الله، مقبلا عليه بقلبه؛ هو الباب الأصلي في هذا الدين: باب مجاهدة النفس، فيجاهد المرء نفسه ويقومها ويحاسبها ويصلحها، حتى يحيا ذلك القلب وتعود به إليه همته، ويستطيع أن يقاوم أمراض الشهوة، وأمراض الشهوات والشبهات، وأن يستبعد عن نفسه تلك الغفلات وتنجع فيه الموعظة وتنجع فيه التذكرة، ويصبح قلبا قد سلك سبيل السلامة وطريق الاستقامة.

الأمر الثاني: وهو الباب المقابل **وهو الاستبدال،** أن يستبدلهم الله تعالى وأن يريح الدنيا من هؤلاء المقصرين المفرطين في دينهم، وفي تحمل مسؤولية أسباب نجاتهم عند الله تعالى، أن يستبدل الله تبارك وتعالى هؤلاء الخلق الذين لم يبذلوا له شيئًا، ويأتي بقوم آخرين يحبهم ويحبونه يحققون أمر الله تعالى، ويقومون على تنفيذ ما يحبه ويرضاه، كما ذكر المولى جل وعلا: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤] ، ويستبدل هؤلاء الخلق الذين بخلوا بأوقاتهم وجهدهم على الله، وصرفوها في شهواتهم ونزواتهم ولهوهم وأكلهم وشربهم ونسائهم وكرهوا المجاهدة واستثقلوها، كما قال جل وعلا: ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة: ٣٩] بأناس يحبهم.

نحن إذن بين هذين الأمرين: **بين تغيير هذا الواقع بقوة الله تعالى ومدده والمجاهدة** على أن نكون أهلا لهذا المدد وتلك القوة، وأن نتصور مجاهدة

الصحابة فنحاول أن نقتفي آثارهم في القيام بذلك؛ **أو** أن ننتظر قوله :﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠٠] في قوله في تلك الآيات الكريمات في سورة الأعراف : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٦-٩٩].

وهذه الآيات لا شك تنسحب في جزء منها على المؤمنين الذين أمنوا مكر الله مع أن مكر الله قد نزل قريبًا منهم، ونزل على أبوابهم، ونزل فيما بينهم وينتظر عياذا بالله تعالى أن يحل بهم.

قضيتنا إذن التي سوف نتكلم عنها: **إما المجاهدة، وإما الاستبدال**..

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد: ٣٨].

إما أن نشرع في الطريق إلى الله تعالى ونمشي في سكة المجاهدة، وأن نجاهد أنفسنا على التحقق بالموعظة، وأن نخرج عن هذه المصائب والآفات التي قيدت العمل والأرجل والأيدي في السير إلى الله تعالى، والتي جعلت الشيطان ينظر إلى المؤمنين وقد قيدوا أنفسهم وأيديهم وأرجلهم وقلوبهم عن رؤية الحق والسير به والاستعانة به،

وقف يضحك عليهم الشيطان وهم مقيدون بسلاسل الدنيا وشهواتها وأغلالها، وبطول الأمل فيها، وبالتوسع والسير لها، وأخذ يضحك عليهم وهو يشير إليهم إشارة المنتصر عليهم الذي يحب لهم ذلك، ويود ألا يخرجوا منه، ثم يوسع لهم فيه مرة أخرى وكلما أراد أحدهم أن يفك وثاق نفسه، وأن يخرج عن غله وقيده الذي قيد به نفسه لله تعالى يقول له: لا دعك من ذلك غدا إن شاء الله وبعد غد والجمعة القادمة، فنقطع ذلك ونسارع للاستجابة لأوامر الشرع...

وإما سكة النظر في نواميس الله تعالى في الكون والتخويف بالاستبدال ووقوع هذه الأهوال والمحن التي بدأ يحل نذيرها من قرب بحيث لم تعد بعيدة عن أن تنزل ببقية المؤمنين.

علمنا عقدتنا التي نقف عليها اليوم، والتي يجب على المؤمنين أن يصبروا ويصابروا ويثابروا ويصمدوا ويثبتوا ويستعينوا بالله تعالى أن يعبروها حتى يصلوا إلى الله تعالى، إن ثبت الناس وصمدوا يوشك أن يعبروها، إن بقوا كما هم رجعوا ثم حاولوا ثم رجعوا وهم راجعون منتكسون يحاول الشيطان أن يبعدهم وأن يمنعهم وأن يخوفهم وأن يرهبهم وأن يؤخرهم عن البدأ من هذه اللحظة...ما الذي يحملك على ذلك؟

ابدأ مع الله تعالى من الآن واستعن به واصمد وستجد فرج الله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

بداية ذلك: أن تعاود عهدك مع الله تعالى، بأن تعزم هذه المرة عزما أكيدا أنك ستوفي لله تعالى، أو أن تقوم بالوفاء بشيء مما عاهدت الله عليه في الزمان الماضي ولم

توف به؛ وأن تؤكد هذه العزيمة وهذه النية وتلك الهمة لتكسر هذا الحاجز الذي بينك وبين ربك، ولتكسر هذه السلاسل الشيطانية التي قد منعت سيرك وقيامك لله تعالى.

بداية ذلك: أن تكون من أبناء الآخرة وأن تتخلص من الدنيا وركونك إليها والميل إلى الشهوات والغفلة عن لقاء الله تعالى، واتباع الشهوات وتتبعها، والتوسع في الدنيا وملذتها ونزواتها، والبكاء عليها والحزن لها، والتقاتل على تحصيلها، والخوف من زوالها، ونسيان الآخرة والعمل لها، والاستعداد لتجهيز الجهاز للسير إلى الله تعالى.

بداية ذلك: أن تنكب على كلام الله تعالى في بيوت الله تعالى..

بداية ذلك: ألا تؤثر شيئًا على الله تعالى: ولدا كان أبا كان أما كانت مالا كان محبة كانت لولد لكبير لشيخ لصغير لأمير لغفير ... إلا محبة الله تعالى وحده ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم.

إن قصر أهل الإيمان في ذلك فإنهم لا شك باقون فيما هم فيه من هذا الحال السيئ؛ فلا هم تحملوا مسؤوليتهم أمام الله تعالى في أن يحققوا أسباب نجاتهم هم أنفسهم، ولا هم قد تحملوا مسؤولية هذا الدين الذي شرفهم الله تعالى به ورفع به ذكرهم وأعلى منزلتهم؛ ففرطوا في المسؤوليتين معا: مسؤولية أنفسهم، ومسؤولية دينهم فماذا ينتظرون إذن؟ ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة: ٣٨].

الفصل الثاني:

المجاهدة

الفصل الثاني: المجاهدة

وقضية المجاهدة في رمضان تكمن في أن الله تعالى قد ساق للمؤمنين هذه الأوقات الكريمة ليجاهدوا فيها، وليُخفوا أعمالهم ولا يظهروها إلا لرب العالمين فقط لا شريك له، وليرفعوا عبادتهم لله تعالى.

جاءهم هذا الشهر ليكون عونًا ومددًا من الله سبحانه وتعالى، وليحاولوا أن يبذلوا شيئًا لله تعالى مما أعطاهم، كما قال: ﴿ **وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ﴾ [الحديد: ٧]، وليحمل المرء على أن يجدد عهده مع الله تعالى، وأن يبدأ سيرًا جديدًا يود به النجاة، ويود به تحمل مسؤوليته، ويود به أن يكون من هؤلاء الذين ذكر الله تعالى ﴿ **وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فكانت مهمتهم في الحياة هي المجاهدة، فإن كانوا في شغل الدنيا فهم في المجاهدة بأن تكون الدنيا لأعمال الآخرة، وإن كانوا في أعمال الآخرة كانوا في المجاهدة على المسارعة إلى تلك الأعمال ـ هذا من ناحية ـ ومن ناحية أخرى أن تكون تلك الأعمال على أحسن درجاتها من الإخلاص واتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم لتكون على رجاء القبول عند الله تعالى.

وسنشير في هذا الفصل إلى **ملامح المجاهدة** ثم نبين **حال النبي صلى الله عليه وسلم المشرف فيها، وكذلك اقتداء أصحابه رضوان الله تعالى عليهم** بالنبي المعظم صلى الله عليه وسلم في قضية المجاهدة؛ لماذا استطاعوا أن يجاهدوا؟ وكيف استطاعوا ذلك ورتبوه؟ وكيف استعانوا بالله على تحقيقه؛ ليكون طريقا مرسومًا لنا نستطيع السير فيه، والاهتداء بهديه، حتى نصل إلى شيء مما وصلوا إليه يكون سبب بركة الله علينا ورحمته بنا.

ثم نشير إلى **تفسير بعض آيات المجاهدة لتكون عونًا لأهل المجاهدة**، وفي النهاية نحاول أن نرسم **صورة لتلك المجاهدة في حياة المرء المؤمن**، ونبين كيف يجاهد المرء نفسه وكيف يأخذ مددًا جديدًا من الله تعالى يستكمل به مسيرته إليه ، ويقطع هذه الشواغل والعوائق التي تشغله وتعيقه عن الله تعالى حال سيره إليه؛ ويتقوى على عوارض الطريق من النفس والشيطانه والهوى، وما يلاقي من أمور الدنيا وآفاتها وغفلتها، ومن أمور الآخرة والصبر على أعمالها، والمجاهدة في تحصيل درجاتها، ومراتبها التي يتطلع إليها.

حتى إذا قطعت الأعذار، لم يبق لمعتذر عذر في تبين طريق المجاهدة، ولم يبق عليه إلا أن يحمل عصاه ويسير إلى الآخرة؛ فإن أبى، فحينئذ لا يبقى أمامه إلا الاستبدال كما ذكر الله تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد: ٣٨] .

أولاً : ملامح المجاهدة

نضع بعض الملامح لهذه المجاهدة لتكون عنوان أهل الإيمان في سيرهم إلى الله تبارك وتعالى وفي مجاهدتهم لأنفسهم وشيطانهم وهواهم.

حجاب الجنة وحجاب النار

أول ما ينبغي أن يعلمه المرء في هذه المسألة علمًا تامًا: **أن الجنة قد حجبت بالمكاره، وأن النار قد حجبت بالشهوات** [1]؛ فهذه الجنة التي يسعى أهل الإيمان إليها لمرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين قد حجبت عنا بهذه المكاره: بالابتلاءات والمصائب

(١) رواه أحمد (٣/٢٥٤ ، رقم ١٣٦٩٦) ، ومسلم (٤/٢١٧٤ ، رقم ٢٨٢٢) ولفظه (عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»).

والمحن في النفس والمال والأهل والولدان، بالشيطان والنفس والهوى، بالشهوات والشبهات، كل ذلك يمنع المرء من أن يصل إلى الجنة.

فلا يتخيل المرء أبدًا أن طريق الجنة سهلٌ ميسورٌ، بل هو ممتلئٌ بالمكاره، سواء في مجاهدة النفس على الطاعة، أو في ابتلاءات الله تعالى التي تنزل على المرء ليتميز الخبيث من الطيب، كما ذكر الله تبارك وتعالى :﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ ﴾ [الأنفال: ٧] ؛ وكذلك ليميز المؤمن الصادق، كما قال : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩] .

لما خلق الله تبارك وتعالى الجنة قال لجبريل: «**اذهب فانظر إليها. قال: لا يسمع بها أحد إلا دخلها؛ فحجبها الله تعالى بالمكاره، وقال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: لا يدخلها أحد سمع بها. قال: اذهب إلى النار بعدما خلقها فلما رآها قال: لا يسمع بها أحد إلا لم يدخلها؛ فحجبها بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إليها، فذهب لينظر إليها فقال: لم يسمع بها أحد إلا دخلها**» [1] **فالأمر الأول** الذي نعلمه: أن هذا

---

(١) رواه أحمد (٢/٣٥٤، رقم ٨٦٣٣) ، والترمذي (٤/٦٩٣، رقم ٢٥٦٠) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم في المستدرك (١/٧٩ ، رقم ٧٢). ولفظه (عن أبي هريرة – رضي الله عنه: أن رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم– قال : «لَمَّا خلَق الله الجنة ، قال لجبريل: اذهَبْ فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها، فقال: وعزَّتِكَ لا يسمع بها أحد إلا دَخَلَها ، فَحَفَّها بالمكاره ، فقال : اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال: وعزَّتك لقد خشيتُ أن لا يدخلها أحد، قال: ولما خلق الله النار، قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: وعزَّتكَ لا يسمع بها أحد فيدخُلَها فحفَّها بالشَّهوات، فقال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فلما رجع، قال: وعزَّتكَ لقد خشيتُ أن لا يبقى أحد إلا دَخَلَها»).

الحجاب شيء شديد ولكن المرء الذي يريد الله تعالى والدار الآخرة، ويريد أن ينقذ نفسه **لا بد أن يقطع هذا الحجاب**، حجاب الشهوات والشبهات وسكك الشيطان وآفاته التي هي الطريق الممهد إلى النار، لا بد أن يقطع هذا الحجاب حتى يحتجب عن النار وآلامها وعذابها وبؤسها وشدتها، ولا بد حينئذ أن يجاهد المرء نفسه على أن يقمع هذه الشهوات، وأن يسارع إلى الله تبارك وتعالى فرارا من هذه النار، وفرارًا من عذابها؛ فيخوض في تلك المكاره التي هي الطريق الصعب الذي لا بد وأن يتحمل فيه المرء مسؤوليته حتى يصل إلى الجنة ، فإذا تحمل ذلك في الدنيا كان له حال حسن مع الرب جل وعلا، وحصل في الدنيا أسباب بقائه وسعادته؛ إذ سعادة الدنيا والآخرة موقوفة على هذا الحال، فمن فرط فيه فرط في سعادته فيهما، بل عرض نفسه للشقاء والعذاب فيهما.

والأمر الثاني: أن هذا الحجاب على الجنة أو على النار يسير على من يسره الله تعالى عليه، فليس شيئًا صعبًا لا يقطعه المرء، بدليل أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قطعوه وجاوزوه، وبارك الله لهم في وقتهم وجهدهم، وأعانهم ووفقهم سبحانه وتعالى حتى قطعوا هذه الأحجبة التي تحول بينهم وبين نجاتهم، أو التي تكون سببا في رداهم وهلاكهم.

والمؤمنون المتقون اليوم **ينبغي أن يعلموا علمًا أكيدًا أن هذا الأمر ليس يسيرًا بضعفهم وقلتهم وإرادتهم الدنيا، لا**، وإنما هو يسير وسهل على أولئك الذين قدموا الله تعالى والدار الآخرة، سهل على من تقووا بالله جل وعلا، وجعلوه سبحانه وتعالى سندهم ومرتكنهم في القيام بهذه الأعباء وتحمل تلك المسؤوليات؛ فلما ارتكنوا إليه واستعصموا به واستعانوا به سبحانه وتعالى خف عليهم ذلك كله، ولم يجدوا له مشقة.

فماذا فعل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟ لما جاءهم أمر الإيمان وقف لهم الشيطان قائلا: أتؤمنون وتتركون دينكم ودين آبائكم وأمهاتكم؟ فخالفوه وآمنوا مع ما كانوا فيه من الشدة، ثم جاءت الهجرة فقال: أتهاجرون وتتركون أهلكم ونساءكم وأولادكم وأوطانكم وأموالكم؟ فهاجروا وخالفوه، ثم جاء الجهاد فقال: أتجاهدون؟ تقتلون أنفسكم وترملون نساءكم وتيتمون أطفالكم؟ فخالفوه وجاهدوا في سبيل الله[1].

من الذي خالف نفسه فهاجر وترك نفسه وماله وأهله ووطنه وولده لله تعالى مجاهدا حق جهاده..

من الذي ذهب ليقاتل في سبيل الله فجاءه الشيطان وقال له: ترمل نساءك وتيتم أطفالك؟ فخالفه وجاهد فقتل، أو حصل إحدى الحسنيين كما ذكر المولى سبحانه وتعالى؟..

من الذي جاهد في الله حق جهاده؟

---

(١) رواه أحمد (٣/٤٨٣ ، رقم ١٦٠٠٠) ، والنسائي (٦/٢١ ، رقم ٣١٣٤) ، والبغوي (٣/٢٤٩ ، رقم ١١٨٨) ، وصححه ابن حبان (١٠/٤٥٣ ، رقم ٤٥٩٣)، وحسن إسناده ابن حجر في الإصابة (٢/١٤). ولفظه (عن سَبرة بن أبي فاكه - رضي الله عنه - قال : سمعتُ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- يقول: إنَّ الشيطانَ قَعَدَ لابن آدم بأطْرُقه ، فَعَدَ في طريق الإسلام ، فقال : تُسْلِمُ وتَذَرُ دينَك ودين آبائك وآباء آبائك؟ فعصاه وأسلم ، وقَعَدَ له بطريق الهجرة ، فقال : تُهاجرُ وتَذَرُ أرضك وسماءَك ؟ وإنما مَثَلُ المهاجر كَمَثَلِ الفرس في الطِّوَل ، فعصاه فهاجر ، ثم قَعَدَ له بطريق الجهاد ، فقال : تُجاهدُ ؟ فهو جهد النفس والمال ، فتُقاتل فتُقْتَل ، فتُنكَح المرأة ويُقسَم المال ؟ فعصاه فجاهد ،قال رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «فَمَنْ فَعَلَ ذلك كان حقًا على الله أن يُدْخِلَهُ الجنة ، وإن غَرِق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصَته دابته كان حقًا على الله أن يُدْخِلَهُ الجنة»).

انظر إلى الصحابة رضوان الله تعالى عليهم عندما تنزلت عليهم آيات القرآن؛ لقد سارعوا إلى التحقق بها، وكانوا أول المتصفين بها، ما كانوا كحالنا هذا يصفون الخير ولا يتصفون به !

وكان سبب ذلك كله عون الله ومدده لهم الذي استطاعوا به الثبات وأن يسيروا إلى الله تعالى وأن يكون عملهم في محل القبول عند الله سبحانه وتعالى والجزاء الحسن في الدنيا، وفي الآخرة؛ ولذلك رأينا جزاءهم في الدنيا عظيما؛ حيث رفع الله تعالى ذكرهم، وأعلى منزلتهم ونصرهم على أعدائهم، ونشر دينهم، ورفع رايتهم سبحانه وتعالى، على عكس ما وصلنا نحن إليه من هذه الحال التي خَفَت فيها صوت الدين، ونُكست راياته، وتقلصت أرضه وعباده، وارتفع شأن المعصية وزاد حجم المنكر؛ لأن العبيد حينئذ لا يستحقون أقل من ذلك!

كان مطلوب أهل الإيمان إذن أن يستحضروا هذا العون وذلك المدد، وأن يسيروا في طريق تحمل تبعات ومسؤوليات نجاة أنفسهم، وتحمل مسؤولية هذا الدين التي شرفهم الله تعالى بها وهم لا يحبون أن يتشرفوا بها، يحبون أن يتشرفوا بالدنيا الزائلة الفانية، ويجاهدوا فيها ويتعاركوا عليها ويضيعوا فيها أوقاتهم، وجهدهم وصحتهم؛ حتى إذا فاجأهم الموت.. ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨].

الأمر الثالث هو: ماذا قال هؤلاء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بعد كل ما فعلوه، وبعد كل تلك التضحيات التي قدموها وبعد هذه المجاهدة العظيمة للشيطان؟

قالوا:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا [1]

وهي التي لا بد وأن تستشعرها أيها المرء المؤمن: **الافتقار إلى الله تعالى على كل حال**، وأنك لولا الله لا تستطيع أن تفعل شيئًا، وإلا لما لم تفعل؟ **هل أنت قوي وقادر وعندك مال وجاه وسلطان وصحة وشباب وفراغ وكذا وكذا.. فلماذا لم تكن أول المتقين؟ وأول السائرين إلى الله تعالى؟** ولماذا لم تكن على هذه الحالة من الهمة العالية والعزيمة الماضية التي تستطيع بها أن تقطع الشهوات وحجبها، وأن تتحمل تلك المكاره وأحجبتها التي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم؟

إن افتقار المرء إلى الله تعالى في الدخول إليه هو أهم هذه العوامل التي يُقوي بها الله جل وعلا المرء في سيره إليه سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٨٢)، ومسلم (١٨٠٣)، ولفظه (عن البراء رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو اغبر بطنه يقول :

(والله لو لا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلـــن ســـــكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينـــــا إذا أرادوا فتنة أبينا)

ورفع بها صوته (أبينا أبينا)).

المسارعة والمسابقة في الآخرة وليست في الدنيا

وهو الملمح التالي الذي ينبغي أن يتفطن له المؤمنون، وهو **أن وجودهم في الحياة الدنيا ليس لتحصيلها، وجمعها والتوسع فيها؛ لأن الله تعالى قد ضمنها لهم**، وأنهم إن وثقوا في رزق الله تعالى فهو آت لا محالة، وأنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها وأجلها، ولن يخرجوا من الدنيا ولهم عند الله تعالى شيء، وإنما سيحصلون ما كتب لهم ولابد، ، وشرط ذلك على نفسه الكريمة سبحانه وتعالى أن يأخذوه بطاعته، لا بمعصيته، إذ كيف يأخذون ما عند الله بمعصيته، وبالغفلة عنه جل وعلا؟ وكيف يبارك لهم في مثل ذلك؟ وكيف يحصلون به الآخرة؟! إن تحصيلهم للدنيا يكون فقط للاستعانه على الآخرة، لا لتكون عطلة عنها ويكون المرء بسببها من المتخلفين عن اللحاق بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

لذلك كان هذا الملمح من العلامات الأولى التي تميز المؤمنين في هذه الحياة الدنيا: **أن حياتهم كلها إنما هي عبارة عن المسارعة إلى الله، المسابقة إلى الله، المنافسة فيما يرضي الله تعالى**، كما قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ، والثانية: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الحديد: ٢١] والثالثة: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين: ٢٦]؛ فكانت هذه الآيات دليلاً ومرشدًا للمؤمنين أنهم ليسوا في الدنيا إلا للمسارعة، يعني: أنهم يسارعون بأقصى ما لديهم من جهد ووقت ومال ونفس ليصلوا إلى المغفرة والجنة، لأن ذلك هو أمر الله جل وعلا لهم.

وإذا نظرنا في تطبيقنا لهذا الأمر في حياتنا وأحوالنا وجدنا المؤمنين المتقين لهم قصب السبق دائمًا في التكاسل والتأخير؛ لا تجد متأخرًا إلا أن يكون متدينًا ملتزمًا، حتى في أعمال الإيمان التي ينبغي أن يحصلها المرء تجده كذلك: في سننه، وفي عباداته، وفي صلواته، لا يحاول أن يفعل ذلك إلا في نهاية وقت أعمال الإيمان أو قرب انتهائه، فإن كان يستيقظ للفجر فهو يستيقظ متأخرًا له، لا يستعد له قبل دخول الوقت على الحال الحسن لأهل الإيمان للمؤمنين المتقين بأن يقوم فيتطهر، ويسابق إلى المسجد، فيقف في الصف الأول، ويحصل الدرجات العالية: كل خطوة يرتفع بها درجة وتحط بها عنه خطيئة[1] إنه ليس على هذا الحال ، وإنما إذا أراد القيام يقول: نم قليلاً حتى تقام الصلاة، لا زال الوقت مبكرًا ، يمكن أن تنام ربع ساعة أو نصف ساعة حتى تقام الصلاة فالصلاة تقام متأخرة؛ فيتأخر بذلك عن أن يصل إلى الله تعالى !!!

ليست المشكلة في كونه يأتي متأخرا هذه الدقائق، وإنما مشكلته في أن علاقته بالله تبارك وتعالى تقوم على التأخير والتكاسل والتراجع والتهاون في أمر الله تبارك وتعالى، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: أنه ليس مسارعًا إلى الله تعالى، ولا متسابقًا مع غيره في هذا الطريق وتلك هي المصيبة الثانية؛ لأنه حينئذ لا يتأثر قلبه بأن يكون متأخرا أو أن يكون متقدما.

---

(١) رواه مسلم (٤٦٢/١ ، رقم ٦٦٦)، ولفظه (من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة).

فالأولى هي المسارعة.. في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ، فما أن يأتي أمر من أوامر الله سبحانه وتعالى إلا وأن يكون **المسارع إلى تنفيذه**، فيبذل وقته وجهده، و صحته وفراغه وماله إلى أن يحصل هذا الأمر الذي أمره الله تبارك وتعالى به، **والثانية هي المسابقة**، في قوله تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ ﴾ [الحديد: ٢١] فيدخل في المسابقة مع غيره، لا يكون غيره أبدًا هو الأول عليه، ولا يكون غيره هو المسابق المسارع إلى الله وهو ينظر لا يهمه ذلك، ولا يحزنه ولا يجعله يبدأ الكرَّة من جديد ليسارع إلى الله تعالى؛ حتى يصل إليه سبحانه وتعالى قبل وصول غيره.

لم نرهم يوما ناموا عن أن يجاهدوا، أو أن يتسابقوا، أو أن يسارعواليكونوا هم المقدمين عند الله تبارك وتعالى، المسارعين إلى رضائه ومحبته والتعلق به، فإن فاتهم شيء من ذلك وجدناهم يبكون ويتأثرون، كما ذكر سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [التوبة: ٩٢].

إن التأخر والتكاسل والنوم عن أوامر الله تعالى، وعن السير إلى الله تعالى، وعن استغلال الوقت والجهد والمال فيما يرضيه سبحانه وتعالى، هو سبب التأخر عن رحمة الله تعالى وجنته، **لأن أصحاب هذه العلاقة هم الذين أخروا أنفسهم، ولا يزال قوم يتأخرون ويتأخرون حتى يؤخرهم الله تعالى**، وحتى يكونوا هم في ذيل قائمة المسارعة إلى الله تعالى، لأنهم أعرضوا عن المسارعة وعن المنافسة بينهم على تحصيل أعظم أعمال الإيمان .

وكان نتيجة ذلك أن ركنت هذه النفوس إلى الدنيا ومالت إليها، **ووجدت العمل لله تعالى صعبًا وثقيلا عليها**، ووجدتها تمل السير إلى الله تعالى والعمل له سبحانه وتعالى وليس بمثل ذلك تحصل درجات القرب من الله جل وعلا.

تخويف الشيطان

وهي الحال التي ينبغي أن نتفكر فيها، فإن المرء إذا أراد أن يعاهد نفسه أنه يبدأ بداية جديدة مع الله تعالى هذا اليوم، في قراءة قرآنه، وفي صيامه، وفي أذكاره، وفي تحسين نفسه ومحاولة السير إلى الله تعالى وأنه قد علم أن هذا الطريق لا محيد عنه ولا محيص، وأنه إن كان يريد الله تعالى ورسوله ويريد الدار الآخرة لا بد أن يسلك هذا الطريق، إذا بالشيطان يقف له فتضعف هذه النفس عن القيام بمثل هذه المهمات.

فإذا أراد أن يجلس في المسجد مثلا تأتي له قواطع الشيطان ليقول: أنا متعب اليوم، لقد عملت طوال اليوم، وفعلت كذا وكذا ولا أستطيع التأخر أكثر من ذلك، أريد أن أستريح، فيترك المكث في بيت الله. أو أن يأتيك الشيطان ليقول لك: أنت غدًا عندك سفر، أو عندك امتحان، أو عندك مذاكرة، أو عندك كذا وكذا **وكأن هذه الأمور يجب أن تعطلك عن الله تعالى**؛ وإذا أردت أن تقوم الليل يثبطك فتقول: لا أستطيع أن أصلي، أنام بالليل قليلا ثم أقوم؛ وهكذا في كل يوم نفس القصة لا تتغير!

بل يمكن أن يخوفك الشيطان بالموت نفسه يقول لك: لا حول ولا قوة إلا بالله أنت تصلي هذه الليلة كأنك ستموت، ما الذي حدث لك! لا لا دعك من هذه الليلة، وإن شاء الله تصلي من غد، وهكذا تخويف الشيطان لا يقف عند حد.

إذن قد علم الشيطان طريقك فوقف لك فيه، كل يوم يضعفك عن القيام، ويخوفك من الصدقة والصلاة والصيام بأنك ستضعف عن ذلك وأنك لا تستطيع ذلك، ويضع لك العلل، ويضع لك الأعذار، ويضع لك العراقيل حتى تيأس وتستسلم في النهاية على أن تقوم بشيء، فينفرط عقدك وتختل أحوالك وتضيع ليلتك ويضيع يومك؛ فإذا بك لم تحصل قرآنا، ولا ذكرا، ولا صلاة؛ فإذا حاولت مرة أخرى قطع الشيطان عليك الطريق كما قال: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦].

وقد حذر المولى سبحانه وتعالى المؤمنين من ذلك؛ قال: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]..

وكما قال تعالى: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤] يعني: بالفرسان والمشاة.. ﴿ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٤] ..

إنها إذن وعود الشيطان: أنك إن شاء الله غدا ستقوم، وبالليل ستتصدق، وإن شاء الله الخميس القادم ستصوم، وإن شاء الله عندما تأتي من السفر ستعتكف... وتأخذ في أماني ووعود الشيطان!

والسؤال الآن: **كيف يمكن للمرء أن يعالج ضعف النفس**، ووسوسة الشيطان، وأن يعالج تأخيره عن السير إلى الله، و ضعف الهمة وانفصام العزيمة، و ما هو فيه من تلك الآفات التي تمنعه عن هذا الترقي إلى الله تعالى؟

هنا يأتي حديث النبي صلى الله عليه وسلم : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير **احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**، وإن

أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان» [1].

ومقصدنا من الحديث جزءان:

الجزء الأول: كيف يَقوى المؤمن في مجاهدته لله تعالى؟ وكيف يَقوى بالله تعالى؟ وهذ بينه قول النبي صلى الله عليه وسلم : «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»، فيكون التَّقوي بالله بالاستعانة به سبحانه وتعالى.

الجزء الثاني: وهو قوله: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**»، وضعفُ الهمة وانفصام العزيمة وضعف البدن والنفس والروع عن السير إلى الله تعالى، واستثقال العبادة والطاعة، وكذلك محبة النوم والميل إلى الكسل والركون إلى الدنيا، والتوسع في الشهوات هو الغالب على أحوال المؤمنين اليوم.

إن أهل الإيمان اليوم لا يتأثرون إلا بما يوافق هواهم، وأكلهم وشربهم ومنكحهم، ونومهم وكسلهم وراحتهم؛ إن جاء على حساب راحته لا يقوم لله تعالى، إن جاء على تعب نفسه يحتج بالتعب على ذلك، إن جاء على مرض نفسه وعلتها احتج بذلك على ألا يقوم لله تعالى: بصلاة ولا بصيام ولا بغيره من أعمال الإيمان.

---

(١) رواه مسلم (٨/٥٦ ، رقم ٦٩٤٥)، ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شيء فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ).

انظر إلى الصحابة رضي الله عنهم؛ لما نزلت آية الصدقة قالوا: «**كنا نحامل على ظهورنا**»[1] إلى آخر الحديث. ولما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصدقة ذهب رجل فأجَّر نفسه ليستسقي لهم من البئر [2] يعني: يضع الدلو ويسحبه بالحبل طوال نهاره، ثم كانت أجرته في هذا اليوم صاعين من تمر؛ فذهب بصاع لأهله؛ لأنهم لا يملكون شيئًا، وأخذ الصاع الثاني فتصدق به للنبي صلى الله عليه وسلم..

فلم يستثقل العمل، ولم يستصعب شيئًا يقوم به؛ حتى يتصدق لله تعالى، ولم يحتج بأنه لا يملك شيئًا، ولم يحتج بتعبه وضعف قوته وإنما ذهب متقويًا بالله تعالى يرجو ثواب الله تعالى..

يجاهد هذه النفس ويحملها على أن تسارع إلى الله تعالى، وأن تبذل وقتا وجهدا تحصل به مالاً؛ فتستطيع أن تتصدق به!

---

(١) رواه البخاري(١٣٤٩) ومسلم (١٠١٨). ولفظه (عن أبي مسعود البدري [عقبة بن عامر] - رضي الله عنه - قال: لما نزلت آيةُ الصَّدَقة ، كُنَّا نُحامِلُ على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدَّق بشيءٍ كثير ، فقالوا : مُرَاءٍ، وجاء رجل فتصدق بِصَاعٍ ، فقالوا : إن اللّه لَغَنِيٌّ عن صاع هذا ، فنزلت { الذينَ يَلْمِزُون المطَّوِّعينَ من المؤمنين في الصدقات ، والذين لا يَجِدُونَ إلاّ جُهْدَهُمْ... } الآية (التوبة : آية ٧٩). وفي رواية : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أَمَرَنا بالصدقة انْطَلَقَ أحَدُنا إلى السُّوق ، فَيُحَامِلُ، فَيُصيبُ المُدَّ ، وإنَّ لبعضهم اليومَ لَمائَةَ ألف. زاد في رواية : كأَنَّهُ يُعَرِّضُ بنفسه. وفي أخرى : لَمَّا أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالصدقة كُنَّا نَتَحَامَلُ ، فجاء أبو عَقيلٍ بنصْفِ صاعٍ ،وجاء إنسانٌ بأكثر منه ، فقال المنافقون : إن اللّه لغنيٌّ عن صدقة هذا ، وما فعل هذا الآخرُ إلاّ رياء ، فنزلت).

(٢) رواه ابن ماجه (٨١٨/٢ ، رقم ٢٤٤٧) ، والضياء (٤١٢/٢ ، رقم ٧٩٨) والأثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

من الذي يفعل ذلك الآن؟ يؤجر نفسه يومًا كاملاً يتعب نفسه ويحامل على ظهره، ويستسقي ماء ويفعل هذه المشقات، ويقوم بهذه الأمور الصعبة الشديدة على النفس؛ ليحصل صاعين من تمر: صاعا لأهله وصاعا يتصدق به!

ما نحن فيه اليوم: أن يقال له تصدق فكأن الكلام لأناس في عالم آخر، أن يقال له: صل وقم فقد كان صلى الله عليه وسلم يقوم حتى تتشقق قدماه من طول القيام، يقول: سأنام قليلا وأصحو! يقال له: عليك أذكار الصباح فينقضي وقت الأذكار وإذا به يضيعها ، يقال له: عليك وردك في القرآن فإذا انقضى الوقت الذي خصصه للقرآن ولم يقض ورده إذا به يفرط في بقية الورد ولا يقرأه؛ ولا يقضي مافاته من ورد الليل بالنهار، ولا ما فاته من ورد النهار بالليل،،،

مبدأه إذن: **إن فعل شيئًا كان به** ...**وإلا ضاع عليه**،،،فلا يسارع فيه ولا يحزن على فوته، ولا يحاول أن يقضيه، ولا يجاهد نفسه، ولايشدد عليها أورادها؛ حتى تستقيم له، فمتى يحصل ذلك؟

هذا تخويف الشيطان وتسويله الذي ينبغي أن تقطعه بأن تبادر إلى الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم: «**استعن بالله ولا تعجز**» ، وكما قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**».

وقد ذكر النووي في شرحه **لمعنى المؤمن القوي**: "المراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أرغب في الصلاة والصوم

والاذكار وسائر العبادات وأنشط طلبا لها ومحافظة عليها وقوله: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**» فمعناه الحرص على طاعة الله تعالى والرغبة فيما عنده وطلب الاعانة منه على ذلك، ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة ولا عن طلب الاعانة"[1].

وهي المسألة المهمة التي تعين المرء على المجاهدة: أن يكون المرء هو ذلك المؤمن القوي الذي عنده رغبة صادقة في أعمال الآخرة وأمورها؛ من القيام بأعمال العبادات والتقوي عليها.

والمعنى الثاني: أن المؤمن القوي هو الذي قد قوي باطنه في الالتفات إلى مسبب الأسباب، وترك الالتفات إلى الأسباب، يعني: أنه قد قوي باطنه في الركون إلى الله وعدم الالتفات للسبب، مثال ذلك: إذا تخيلت أيها المسكين أنك إذا لم تنم لن تفعل شيئًا، وإذا لم تسترح لن تقوم إلى الصلاة، وإذا لم يكن عندك وقت لن تتمكن من قراءة وردك والقيام بعباداتك، فقد ركنت إذن إلى السبب ونسيت مسبب الأسباب سبحانه وتعالى الذي يمكن أن يبارك لك في وقتك، وجهدك، وأن يبارك لك في نومك القليل إذا رآك مجاهدا فيه فهداك إلى سُبله سبحانه وتعالى.

---

(١) بتصرف من باب " الايمان للقدر والاذعان له " كتاب : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف : أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الناشر : دار إحياء التراث العربي — بيروت الطبعة الثانية ، الجزء :١٦.

وذكروا **معنى آخر** للمؤمن القوي وهو: الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم[1]، ويعلمهم الخير والإرشاد.

والمعنى الأخير ذكره القرطبي وهو: أن المؤمن القوي هو قوي البدن، قوي النفس، قوي العزيمة في القيام بأعمال الدين، وأعمال العبادات يعني: قوي بدنه وقويت نفسه، ومضت عزيمته **حتى وصل إلى الدرجة التي فتح الله تعالى بها عليه بها في القيام بأمور العبادة، وألا يقصر فيها** كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحج، والجهاد، والصدقة، وغيرها والضعيف على عكس ذلك.

فهذه إذن الصفات التي ينبغي أن يتفقدها المرء في نفسه: يتفقد توكله على الله وركونه إلى مسبب الأسباب، وأن تكون عنده الرغبة الصادقة في أمور الآخرة بحيث يكون أقدر وأقوى على أن يقوم بأعمال العبادة، وأن يخالط الناس ويصبر عليهم، وأن تكون عزيمته على هذه الحال من القوة والمضاء، وأن تكون همته على هذا العلو فيستطيع حينئذ **أن يقوم بتلك الأعمال من أعمال الإيمان محبًا لها، مقبلا عليها، لا يتململ منها ولا يخاف من عواقبها**؛ يعني: لا يخاف عاقبة أمره أنه إن فعل ذلك سيتعب ولا يستطيع، إن صام سيجد ضعفًا في قوته ولا يتمكن من القيام بأعماله وأشغاله، وإن قرأ ورده لا يجد

---

(٢) رواه أحمد (٤٣/٢ ، رقم ٥٠٢٢) ، والترمذي (٦٦٢/٤ ، رقم ٢٥٠٧) ، وابن ماجه (١٣٣٨/٢ ، رقم ٤٠٣٢) ، وقال الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام ص٤٥١: إسناده حسن. ولفظه (عن شيخ من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : «المسلم الذي يُخالط الناس ، ويَصْبِرُ على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس، ولا يَصْبِرُ على أذاهم». أخرجه الترمذي ، وقال: وكان شعبة يرى أنه ابنُ عمر).

وقتا لأن يقوم بكذا وكذا، وإن تصدق صدقة فإنه لن يجد مالا ليفعل كذا وكذا... كل ذلك تخويف الشيطان، وتسويله، كل ذلك من عدم قوة هذه الروح والنفس والبدن على القيام بأعمال الآخرة ومن عدم الرغبة الصادقة في أمور الآخرة والإقبال عليها، ومن ضعف تلك العزائم والهمم التي لم تقبل على الله تعالى، وركنت إلى الدنيا ومالت إليها، وأحبت البقاء فيها ونسيت الرحيل عنها؛ **فصارت في همومها ليس هما واحدا لله، بل همومها متفرقة في شهواتها ولذاتها ونسائها وولدها ومالها ومناظرها وصورها**؛ فإن لم يكن يملك شيئًا من ذلك فهو في أمنيات الشيطان في أن يحصلّ ذلك كله، وليس له أمانٍ وأفكار في محبة الله تعالى، ولا يدور بخلده وفكره ما يكون سببا لمرضاة الله تعالى، والرضا عنه والإقبال عليه، لعلمه أنه إن أقبل على الله تعالى أقبل الله تعالى عليه.

«**ولا تعجز**» أي: لا يصيبك العجز أبدًا طالما أنت مرتكن إلى الله، **إذ كيف يصيبك الضعف وأنت مرتكن إلى القوي القادر سبحانه وتعالى؟** وأنت مرتكن إلى الرزاق ذي القوة المتين جل وعلا ؟ إن خفت رزقا ضمنه لك، إن خفت ضعفا قواك سبحانه وتعالى وأمدك، إن خفت عجزا أقدرك وساعدك سبحانه وتعالى، إن خفت أي شيء إذا بالله تعالى هو الذي يقف لك، هو الذي يعينك، هو الذي يقويك، هو الذي يرفع عجزك سبحانه وتعالى.

لماذا يصيبك العجز إذن؟ لأنك لم تمل إليه ولم تركن إليه، بل شككت في قدرته وقوته، وفي رزقه ومدده سبحانه وتعالى، بل لم تثق في التوكل عليه والركون إليه وكأنه لا يقدر على أن يقويك وأن يرزقك وأن يمدك وأن يعينك وأن يشفيك وأن يبارك وقتك وجهدك، من الذي يبارك وقتك وجهدك إذا لم يباركه هو سبحانه وتعالى؟ من الذين

يعطيك إذا حرمك هو؟ ومن الذي يرزقك إذا منع رزقه جل وعلا؟ ومن الذي يغفر لك إذا لم يغفر هو؟

« **احرص على ما ينفعك**» من أمور دينك ودنياك، دنياك التي تعينك على أمر دينك في عيالك ومكارم أخلاقك، ولا تفرط في شيء من ذلك.

«**وإن أصابك شيء فلا تقل: إني فعلت كان كذا وكذا** »، ولكن أَرجع الأسباب مرة أخرى إلى مسببها، إلى مقدورها الذي قدره الله لها كما قال: «**ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل**»، فبعد أن استعنت بالله وكنت قويا وحرصت على ما ينفعك ولم تعجز، إن أصابك شيء بعد أن فعلت ذلك كله فهو قدر الله وما شاء **فعل** سبحانه وتعالى.

إذن أنت تود أن تقلب أحوالك مرة أخرى، وأن تتفكر فيما بينك وبين الله جل وعلا، وأن تبدأ في المجاهدة والاستعانة ولا تعجز..

أما أن تقصر و تفرط و تعجز من أولها ولا تحرص على شيء يفيدك في دنياك وأخراك، فتضيع وقتك وجهدك وصحتك وفراغك فيما لا يعود عليك بنفع في الأولى والآخرة ولا تستعن بالله على أن تقوم بذلك كله ثم بعد ذلك تحتج بما أنت فيه من عجز وبما أنت فيه من تقصير وتقول هذا قدري؟!.. كلا.

إذا تعارض عندك أمر الدنيا مع أمر الآخرة قدمت عوارض الدنيا ولا شك؛ في مال، في جاه، في علو في الأرض، في نساء، في صور، في شهوات، في أكل، في شرب، في منكح، في كل المصائب السوداء التي كانت سبب عجزك وسبب بعدك وسبب نكوصك ورجوعك عن الله تعالى؛ فأين الاستعانة وأين الحرص على أمر الآخرة ؟

هؤلاء المتكاسلون الذين لم يعلموا ما عند الله وآثروا الدنيا والشهوات والنساء والأكل والشرب والمال، آثروا ذلك كله حتى ولو لم يكن معهم منه شيء؛ فإنهم قد آثروه وتمنوه بقلوبهم !! هذا هو سبب عجزك، وهذا هو ما أقعدك عن المجاهدة.

وقد يظن كثير من المؤمنين أنهم يعملون لله تعالى، وأنهم يقومون بأمر الله تعالى، وأنهم يصلون ويتصدقون ولكن الشيء الغريب **أن أحوالهم لا تدل على ذلك**؛ إذ هم متأخرون عن الله تعالى، لم ترتفع درجتهم عند الله، لم تكن محبة الله تعالى عندهم أحب إليهم من كل شيء: من أنفسهم وأموالهم وأولادهم ووالديهم والناس أجمعين؛ فدل ذلك على أنهم إنما يأخذون بظواهر الحال، ويأخذون بعرض الأعمال **ولا يقومون بالأعمال المقربة إلى الله والمحببة إليه سبحانه وتعالى على حقيقتها، ومن ثَمَّ فهم مخدوعون، أو مُلبس عليهم**، فإما أن يكونوا مغرورين قد خدعهم الشيطان عن آخرتهم وأنساهم لقاء ربهم، وإما أنهم مخدوعون بما هم فيه من أحوال يظنون فيها الصلاح والتقى وهم على غير ذلك !

وتلك الأحوال لا يتميزها إلا من نور الله تعالى بصيرته، وأخذ بقلبه إليه، وأدام قلبه ولسانه على ذكره، واستقر قلبه على السلامة لله تعالى؛ فصار قلبًا سليمًا حيًا مخبتًا منيبًا مقبلاً على الله تعالى خائفا راجيا ظهرت عليه آثار التقى وأعمال الإيمان، وظهرت عليه بشائر الآخرة وأنوار المجاهدة والإقبال على الله تعالى.

وفي نهاية الكلام في هذه المسألة، نذكر بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك**»[1] وشراك النعل: هو سير النعل من أمام وكأن الشارع بعد أن بين لك ذلك، وأنه غني عن جهادك وإن جاهدت فلنفسك حتى تقوي نفسك وقلبك، وحتى تأخذ الأمر بجد وعزم وحتى تستقوي بالله تعالى فإنه قد قال لك: **اعلم أن الخير القليل يمكن أن يوصلك إلى الجنة، وأن الشر القليل يمكن أن يبعدك عنها وأن يوصلك إلى النار وأن يقربك منها**؛ لذلك قال: اعلم أن الطاعة موصلة إلى الجنة، وأن المعصية مقربة إلى النار، وأن ذلك يمكن أن يكون في أيسر الأسباب، شراك النعل، يعني: الشيء اليسير الذي لا قيمة له.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم لذلك في قوله: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يظن أنها بلغت مما بلغت من رضوان الله تعالى يكتب الله تعالى بها له رضوانه إلى يوم يلقاه، وإنه ليتكلم بالكلمة من غضب الله تعالى يكتب عليها به سخطه إلى يوم يلقاه**»[2]، فينبغي إذن على العاقل ألا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه، وفي قليل من الشر أن يجتنبه، فإنه لا يدري الحسنة التي يرحمه الله تعالى بها، كما أنه لا يدري السيئة التي قد تكون سببًا لسخط الله تعالى عليه.

---

(٢) رواه أحمد (١/٣٨٧ ، رقم ٣٦٦٧) ، والبخاري (٥/٢٣٨٠ ، رقم ٦١٢٣).

(١) رواه أحمد (٣/٤٦٩ ، رقم ١٥٨٩٠) ، والترمذي (٤/٥٥٩ ، رقم ٢٣١٩) وقال : حسن صحيح . وصححه ابن حبان (١/٥٢٠ رقم ٢٨٧)، والحاكم (١/١٠٦ ، رقم ١٣٧).

ونحن في مجاهدتنا لا نعبأ بحسنات ولا سيئات، ويستصغر المرء الأعمال ويقلل قيمتها، ولا يهمه أن يأتيها أو أن يدعها ويقول: سأفعل غيرها إن شاء الله تعالى، ويتعلل بتركها والزهد فيها! لا، **أما أهل المجاهدة فليسوا على هذه الحال، لا يزهدون في قليل من الخير يأتوه؛ فلعلها الحسنة التي يرحمهم الله بها، ولا يزهدون في قليل من الشر أن يجتنبوه فلعلها السيئة التي يسخط الله تعالى عليهم بها**، ولعله بنيته السيئة في استصغاره لذلك العمل من الخير وتركه إياه أن يحرمه الشيء الكثير من خير الله تعالى، وكذلك في زهده في هذه الأعمال من أعمال الشر في إتيانها والقيام بها، أو في التقليل من قيمتها أن تكون سببله إلى أن يسخط الله تعالى عليه بها، وأن يحرمه بسببها الخير الكثير كذلك.

ومن ثم يكون المرء حيًا مستقبلاً لأوامر الشرع على التعظيم قليلة كانت أو كثيرة؛ فإنك لا تخطو خطوة إلا رفعك الله تعالى بها درجة وحط بها عنك خطيئة، فلعل هذه الخطوة تكون هي الخطوة التي يرحمك بها، أو تكون هذه الخطوة التي يسخط الله تعالى عليك بها، أو لعلها تكون تلك النية الحسنة التي يرحمك الله بها، أوتكون تلك النية السيئة التي يسخط الله تعالى عليك بها، وقس بقية أعمالك ونواياك في الظاهر والباطن بهذا التعظيم وهذا التقدير والإجلال والاحترام لأوامر الشرع ونواهيه ؛ حينئذ تأخذ طريق المجاهدة إلى الله تعالى مبتدئا من القليل الذي لا تزهد فيه إلى أعلى من ذلك إلى درجة القرب من النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: أبواب وطرق المجاهدة

إن أبواب وطرق المجاهدة كثيرة رأيناها في **سيرة النبي صلى الله عليه وسلم المشرفة وسيرة أصحابه رضوان الله عليهم**.

ونذكر شيئًا من سيرتهم في المجاهدة لتبين كيف كان حال النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف كان حال أصحابه رضوان الله تعالى عليهم كذلك ، ولنستشف من هذه الأحوال، ومن تلك الأقوال من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، وتصرفاته العالية ما يكون زادنا نحن المؤمنين إلى الله تعالى؛ وليكون القوة والمدد للمؤمنين المتقين في سيرهم إلى الله جل وعلا.

أول ما نشير إليه، هو ماذا قال الله تعالى في هؤلاء الصحابة الكرام؟ بماذا مدح الله تعالى أصحاب النبي ؟ قال سبحانه وتعالى: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا** ﴾ [الفتح: ٢٩] **وهذا الجزء الأول: ركعا سجدا** ، والجزء الثاني: ﴿ **يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ** ﴾ أي أنهم في كل أحوالهم يبتغون رضوان الله تعالى؛ فهم في ظواهرهم الظواهر الحسنة، وفي بواطنهم ابتغاء رضا الله تعالى والمسارعة في تحقيق هذا الرضوان الأكبر من الله تعالى.

إذا نظرت إلى الأحوال اليوم رأيت العكس لا شك، تراهم في كثرة الكلام والائتناس بالخلق وفي تضييع الوقت والغفلة وعدم الذكر، وتراهم في التثاقل عن الطاعة والعبادة والتأخر عن الله تعالى، وتراهم في اختلاق الأعذار واختلاق المعاذير عندما تحضهم على ما يقربهم من الله، حتى تقل درجتهم في ميزان ربهم وحتى يسقط من

عين الله في نهاية المطاف؛ فلا هو قاوم هذه نفسه الأمارة بالسوء وحملها وجاهدها، ولا هو الذي سكت، بل يعتذر عن نفسه! من الذي يعتذر له يوم القيامة؟ ﴿ فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ١٠٩] أو كما قال: ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل: ١١١] أنت تجادل عن نفسك الأمارة بالسوء في الدنيا فمن الذي يجادل يوم القيامة عنها، ويكون عليها وكيلا؟

ثم إذا نظرنا في سيرة هؤلاء الصحابة، فإن أول ما يتبين لنا من سيرتهم، أنهم آمنوا بالله تعالى وتركوا دينهم ودين آبائهم، وهاجروا إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ والهجرة لا تنقطع إلى أن تلقى الله تعالى وأنه لابد للمرء وأن يكون مهاجرا في كل لحظة من لحظاته وكل نفس من أنفاسه، إلى الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم بعد ذلك المجاهدة في سبيل الله، ومن أمثلة المجاهدة التي رأيناها في سيرة الصحابة رضوان الله عليهم قصة أنس بن النضر، الذي لم يحضر مع النبي صلى الله عليه وسلم مشهد بدر ؛ فقال: لئن أشهدني الله تعالى مشهدًا آخر، ليرين الله ما أصنع. يبين سعد بن معاذ ما فعل أنس رضي الله عنهما فيقول: قابلت أنس بن النضر رضي الله عنه يوم أحد وهو يقول: واهًا لريح الجنة من دون أحد يا سعد بن معاذ: إنني لأجد ريح الجنة من قبل أحد، وبعد ما حدث من الإنكسار، نظر إلى إلى أصحاب النبي وقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، ونظر إلى الكفرة وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما فعل هؤلاء؛ وتقدم فلم أستطع ما صنع، فقاتل حتى قتل.

سعد بن معاذ بطل الأبطال[1] يقول: لم أستطع ما صنع أنس بن النضر، كأنه يقلل عمله إلى جوار عمل أنس رضي الله عنه؛ يقول: ووجدنا في جسمه رضي الله عنه بضعا وثمانين رمية بسهم أو ضربة بسيف أو طعنة برمح رضي الله عنه، ومثل به المشركون؛ فلم يعرفه المسلمون إلا أخته عرفته ببنانه رضي الله عنه[2] وكنا نظن أن هذه

---

(١) السيد الكبير الشهيد أبو عمرو الأنصاري الأوسي الأشهلي البدري، الذي اهتز عرش الرحمن لموته، الصحابي الجليل سعد بن معاذ -رضي الله عنه- سيد الأوس ومناقبه مشهورة في السيرة ، وغير ذلك. أسلم بعد بيعة العقبة الأولى، وحضر بيعة العقبة الثانية. لما أسلم وقف على قومه، فقال: « يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا.قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام، حتى تؤمنوا بالله وبرسوله، فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا ودخل في الإسلام». عندما طلب النبي صلى الله عليه وسلم المشورة قبل بدر قال له سعد رضي الله عنه: « لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر، فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُر في الحرب، صُدُق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرَّ به عينك، فسر بنا على بركة الله». وأظهر في أُحد شجاعة عظيمة وكان ممن ثبت يدافع عن النبي صلى الله عليه وسلم.أصيب سعد بن معاذ في غزوة الخندق بسهم ولقي ربه شهيدًا من أثره وجاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: (من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واستبشر به أهلها)؟ وقال القوم لرسول الله عندما حملوه لدفنه : « ما حملنا يا رسول الله ميتا أخف علينا منه . قال : ما يمنعه أن يخف وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قط قبل يومهم ، قد حملوه معكم» وكانت وفاته -رضي الله عنه- سنة (٥هـ)، وهو ابن سبع وثلاثين سنة، ودفن بالبقيع.

(١) رواه البخاري (٣٨٢٢/٤) ، ولفظه (عن أنس رضي الله عنه : أن عمه غاب عن بدر فقال: غبت عن أول قتال النبي صلى الله عليه و سلم لئن أشهدني الله مع النبي صلى الله عليه و سلم ليرين الله ما أجد؛ فلقي يوم أحد فهزم الناس، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه، فلقي سعد ابن معاذ فقال: أين يا سعد؟ أني أجد ريح الجنة دون أحد، فمضى فقتل فما عرف حتى عرفته أخته بشامة أو ببنانه ، وبه بضع وثمانون طعنة وضربة سيف ورمية بسهم).

الآية وأمثالها نزلت فيه وفي أصحابه: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ۖ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ومعنى منهم من قضى نحبه: منهم من وفى بعهده، ومنهم من ينتظر الوفاء بهذا العهد ،وقد أطلقت على الموت تجاوزا في هذا الكلام ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٣] فهذه سيرتهم في وجهة الجهاد؛ وقضيتنا في هذا الكلام: **كيف استقبل صحابة النبي رضي الله عنهم قضية المجاهدة** لم يسمعوا الموعظة ويستقبلوها هذا الاستقبال السيئ الفاتر، ولم يكنوا على هذا الحال من التواني ومن طول الأمل و إن شاء الله سوف أفعل كذا، **وإنما حدثت المواجهة فحدث الوفاء**.

أما سيرتهم في أبواب المجاهدة مثل الصلاة والسجود وبر الوالدين، وفي قطع الشهوات والنزوات عن النفس، وفي التزود بزاد الآخرة إلى الله تعالى بزاد التقوى فهي أكثر من أن تحصى؛ وهو الباب الذي قال المولى سبحانه وتعالى فيه حديث الذي يبين عاقبة المجاهدة وأبوابها: «**من تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل -في كل شيء يعني ليست نوافل الصلاة فقط- حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها**»[1].

(١) رواه البخاري(٥/٢٣٨٤، رقم ٦١٣٧). ولفظه (عن أبو هريرة -رضي الله عنه- أن رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «قال الله تعالى: من عادى لي وَلِيًا ، فقد آذَنْتُه بحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مِنْ أداءِ ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّهُ، فإذا أحببتُهُ كُنتُ سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعْطَيتُه، وإن استَعَاذَ بي أعَذْتُه، وما ترَدَّدتُ عن شيء أنا فاعله، ترَدّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت و أنا أكره مَساءَتَه»).

وسوف نبسط الكلام قليلا في قصة ربيعة بن كعب الأسلمي لنبين بابًا من أبواب المجاهدة التي ينبغي أن يهتم لها أهل الإيمان.

أعني على نفسك بكثرة السجود

كان ربيعة رضي الله عنه يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من أهل الصفة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «**سلني، فقال رضي الله عنه : أسألك مرافَقتكَ في الجنة ، قال : أوَ غيرَ ذلك؟ قال: هو ذاك ، قال صلى الله عليه وسلم: فأعِنِّي على نَفْسِك بكثرةِ السجود**»[1].

وانظر إلى المعاني الجميلة في هذا الكلام، وأولها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان من عادته أن يكافئ أصحابه على ما يقدمون له، فلما كان ربيعة رضي الله عنه يقوم على خدمة النبي صلى الله عليه وسلم قال له: سلني، أتريد شيئا؟ ورغم أنه رضي الله عنه كان خادم النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يكون طلبه في الدنيا والآخرة أن يكون رفيق النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة مع النبيين والصديقين عند الله تعالى في أعلى درجة في الدنيا والآخرة.

وهو أيضًا له مغزًى آخر: أن يكون خادمًا من خدام النبي صلى الله عليه وسلم يرافقه في الجنة؛ **فقد انقلبت شهواته ولذته ونعيمه وسرور نفسه وقرة عينه من المال والدنيا**

---

(١) رواه مسلم (١/٣٥٣ ، رقم ٤٨٩)، ولفظه (عن ربيعة بن كعب الأسلمي – رضي الله عنه – قال : «كنتُ أبيتُ مع رسولِ الله ، فآتيه بوَضوئه وبحاجته ، فقال لي : اسألني ، فقلتُ : إني أسألك مرافَقتكَ في الجنة ، قال : أوَ غيرَ ذلك؟ قلتُ : هو ذاك ، قال : فأعِنِّي على نَفْسِك بكثرةِ السجود»).

والنساء إلى مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة ؛ كان من الممكن أن يقول: أعطني كذا من الأرض، أو أعطني كذا من المال، أو زوجني فلانة، أو افعل لي كذا وكذا مما يرتفع به شأنه في الدنيا، ولكنه ترك كل هذه الشؤون من شؤون الدنيا وهو خادم يتطلع لمثل ذلك، ولكنه أعرض عن ذلك كله وقال لا طلب لي غير هذا المطلب: مرافقتك في الجنة.

إذن قد ترك كل شهواته وملذاته ونعيمه ليحصل هذه الدرجة، تراه كان يمكن أن يحصل نعيما دنيويًا، فقدم هذا النعيم على هذه الدرجة؟ كلا لو تعارض إذن معه نعيم الدنيا وتعارضت معه لذات الدنيا وشهوات الدنيا ومال الدنيا ونساء الدنيا وجاه الدنيا وسلطان الدنيا تعارض كل ذلك مع سجدة واحدة يرتفع بها درجة تقربه من النبي صلى الله عليه وسلم لقدم هذه السجدة إذن وإلا ما كان موفيا للنبي صلى الله عليه وسلم بما طلبه منه، ولا بما أمره به؛ ليكون مرافقا له في الجنة، **فلم يكن هناك مانع يمنعه من المرافقة إلا هذه المعاني من المشقة، وإتعاب النفس** التي هي في الحقيقة نعيم النفس ولذتها وشهواتها في السجود لله لترافق النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن المعاني المهمة أنه إذا كان ربيعة وهو خادم النبي صلى الله عليه وسلم ومن أهل الصفة الذين لا يأوون إلى مال يقول: أسألك مرافقتك في الجنة؛ فما بالك إذن بكبار أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ماذا يسألون وماذا يطلبون وهل ينتظرون مثل ذلك حتى يقول لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «أعني على نفسك بكثرة السجود»؟ بالطبع لا، **بل قد واصلوا وساروا وتنافسوا وسابقوا وسارعوا وعلموا الطريق إلى الله تعالى من حاله**

المشرف صلى الله عليه وسلم، فلم يعودوا يسألون؛ لأنهم قد ساروا وقطعوا هذه المسافة إلى الله تعالى، وبذلوا له فيها ما يكون سبب مرافقتهم للنبي صلى الله عليه وسلم في الجنة.

ثم امتحنه صلى الله عليه وسلم فقال: «**أو غير ذلك؟ قال: هو ذاك**»، فكأنه يقول: هذا أمر شاق صعب انظر في سؤالك اختر شيئًا أقل من هذا الأمر الصعب الذي تتحمل فيه مشقة عظيمة لتحصل هذه الدرجة انظر ماذا تقول؟ قال «قلت: هو ذاك» لا شيء آخر، أريد مرافقتك في الجنة، لم يطلب منه شيئًا آخر؛ ليس له أمل آخر، « **هو ذاك**»، **كائنا ما كانت المشقة، كائنا ما كان التعب، كائنا ما كان ترك النوم والراحة، وكائنا ما كان البذل من مال وجهد وصحة**، إذا كانت تلك هي أمنيته، وذلك هو تطلعه فقل ما شئت في المشقة أنا مستعد لها ، لترى همتهم، ولترى عزيمتهم، ولترى سرعة استجابتهم لله تعالى.

فلما امتحنه صلى الله عليه وسلم قال له مبينا طريق المجاهدة الذي به يستطيع أن يرافقه صلى الله عليه وسلم في الجنة: « **أعني على نفسك بكثرة السجود**» ، تريد المرافقة؟ قال: نعم ـ هو وغيره رضي الله عنه - قال: «**أعني على نفسك بكثرة السجود** ».

تُرى لو قال له النبي صلى الله عليه وسلم: قطع نفسك إربا كان سيقول لا؟ لم يكن ليقول لا، لو قال له ما قال، وأمره بما أمر صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن ليتأخر أبدا؛ لأنه يعلم أن ما أمره به النبي صلى الله عليه وسلم فيه استجابة طلبه الذي يود واستجابة أمنيته ورجائه وأمله في الدنيا والآخرة.

وانظر إلى آمالنا السوداء التي نحن فيها اليوم: لم يتطلع أحد أن يكون رفيقا للنبي فضلا عن أن يعمل للجنة وأن يقطع مكارهها، وأن يبتعد عن النار وأن يتجنب شهواتها!! **من الذي على باله اليوم أن يفكر في أن يرافق النبي في الجنة صلى الله عليه وسلم؟ ومن الذي خطر على باله هذا الخاطر ؟** من الذي هلت على قلبه هذه الحالة الحسنة ليجاهد نفسه فيحصل هذه المرتبة العالية التي لا مطمع لأحد فيها إلا أن يكون على حال النبي المشرف صلى الله عليه وسلم؟

لا يفكر المرء أبدًا في هذه الأحوال اليوم فضلا عن أن يبذل لها وأن يسارع فيها وأن يتنافس على تحصيلها، وأن يقوم لله تعالى ليله ونهاره ليحصل هذه المرتبة مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قد فتح سكتها وبين طريقها بقوله: «أعني على نفسك بكثرة السجود».

بعد هذه الوصية من الرسول صلى الله عليه وسلم لربيعة، تُراه قضى وقتًا في غير كثرة السجود؟ **هذا هو السؤال المتوجه إلينا**؛ هل لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أعني على نفسك بكثرة السجود»، فهل خرج ربيعة يمشي في الدنيا ويطلبها ويحزن على فقدها وعلى نقصانها، ويغفل بها عن آخرته، ونسي أمر النبي له صلى الله عليه وآله وسلم بأن يكثر من السجود ليرافقه صلى الله عليه وسلم في الجنة؟ تراه غفل عن هذا الأمر لحظة واحدة؟ تراه نام عنه وكان يستطيع أن يسجد لله وأن يصلي؟ تراه تكاسل عنه وقال: هذه الليلة لا أصلي وغدا إن شاء الله أصلي، وأحاول أن ألحق بالنبي صلى الله عليه وسلم في الجنة؟

هؤلاء لم يكن اشتياقهم لدرجات الدنيا وتحصيلها، وتجميع الفاني منها، وتضييع العمر والجهد والفراغ والصحة في تحصيل هذه الدرجات الدنيا، التي ما أن يموتوا حتى يتركوها وإنما بذلوا كل جهدهم وكل راحتهم في أن يحصلوا تلك الدرجات العالية في مجاورة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك يقال: **تراهم لو كانوا يستطيعون أن يبذلوا شيئًا يصلون فيه وترتفع في درجتهم كانوا سيقصرون**، أو يستعينون به على تحقيق هذه الدرجة؟ كانوا سينامون عنها؟ إذا وجد أحدهم نفسه يمكن أن ينام وأن يريح جسمه، وفي نفس الوقت يمكن أن يصلي وأن ترتفع درجته، وأن يقترب من النبي صلى الله عليه وسلم، فهل كان ينام ويقدم ذلك على البذل والجهد حتى لو في ظاهر الحال أتعب فيه نفسه، وترك فيه نومه، وتخفف فيه من راحته، وتحمل فيه تلك المشقات؟!!

ينبغي أن يتفكر المرء في هذا الحال؛ **أيريد أن يكون رفيق النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة؟ أيريد أن يقطع هذه الحجب وهذه المكاره التي حفت بها الجنة والنار؟** أو لا يزال المرء في ركونه إلى الدنيا وميله إليها وتكاسله فيها؟ أم ما يزال المرء على هذا الحال من غفلته عن لقاء الله تعالى؟ أو لا يزال على هذا الحال من طول الأمل، وعندما ينتهي من هذه الشغلة، ويأتي من هذه السفرة ويخلص هذا الامتحان، ويأتي بهذا المال ويفعل كذا وتستقر أحواله سيحاول ويجاهد؟

فكثرة السجود كان هو الطريق الذي رسمه النبي صلى الله عليه وسلم لربيعة رضي الله عنه حتى يعينه على نفسه، وهي لفظة موحية من ألفاظ النبي صلى الله عليه وسلم المباركة؛ فلم يقل له النبي صلى الله عليه وسلم: أكثر من السجود، **وإنما قال له : «أعني على نفسك» ليتعلم المرء ذلك الطريق من طرق المجاهدة ليستعين به على نفسه في أن**

يقطع شهواتها، ويستعين به على نفسه في أن يقمع ما فيها من تطلعات وآمال كاذبة، وكذلك يستعين به على نفسه ليصلحها ويهذبها لتريد الله تعالى والدار الآخرة، وكذلك يستعين به على نفسه أن تستقيم في سيرها إلى الله، ولا تكون مترددة متشككة تسير يوما أو يومين ثم تعود أدراجها إلى الغفلة والبعد وقسوة القلب إلى عدم حلاوة الإيمان والتعلق بالله تعالى؛ كل ذلك بينته هذه اللفظة: «أعني على نفسك».

نفسك هذه تريد أن تستعين عليها لأنها أمارة بالسوء، غير مطمئنة، نفسٌ تحملك على الشهوات، وتحملك على البعد، وتحملك على طول الأمل، وتحملك على طلب الدنيا، وتحملك على الغفلة، وعلى الوقوع في المعصية، وعلى البعد عن الله تعالى **كيف تستعين عليها بأن تكون صالحة مطمئنة محبة لله، مقبلة عليه، تجهز جهاز سفرها وتستعد للقاء ربها ؟ الجواب: «أعني على نفسك بكثرة السجود»**.

إذن لا بد أن يرى المرء نفسه حينئذ على هذه الحال الحسن، بأن يستعين على نفسه بكثرة السجود؛ إن نفسك لن تتركك، والشيطان يدخل إليك من نفسك وشهواتها، وذلك هو السبب في تراجع المؤمنين عن طريق الله تعالى: أن أسلحة الشيطان جاهزة في قلوبهم؛ فيدخل الشيطان إلى هذه القلوب فيختار من هذه الأسلحة ما يفيده في أن يهلك بها هؤلاء، وهو يعلم بأي سلاح يستطيع أن يحارب كلاً منهم: هذا يحاربه بالمال فيدخل إليه منه، هذا بالنساء فيدخل إليه منها، هذا بالصور فيدخل إليه منها، هذا بطول الأمل فيدخل إليه منه، هذا بالغضب والشهوة فيدخل إليه منها؛ وهكذا حتى يمنعه عن الله تعالى وحتى يهلكه قبل أن يصل إلى الله جل وعلا.

والنقطة التالية التي نود أن يفهمها المؤمنون: أنه لما قال رضي الله عنه: مرافقتك في الجنة، **لم يكن طريق المرافقة في الجنة إلا أن يكون قريبًا من النبي صلى الله عليه وسلم وطريق القرب من النبي هو الترقي في السجود**، لأن الله تعالى هو الذي قال له ذلك؛ حين قال: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩] يعني: اسجد تقترب، ثم اسجد تقترب، يعني: كلما سجد سجدة تكفلت هذه السجدة بقرب مخصوص يرتفع به المرء قربًا إلى الله تعالى.

فكانت كثرة السجود هي الطريق لدرجة ورتبة القرب من الله تعالى؛ لأنها تطهر النفس عن خبائثها، وتخرجها من شهواتها وعاداتها، وكذلك السجود هو المؤدي لإبعاد هذه النفس عن نقائصها وعيوبها التي تقلل درجتها؛ وكلما خفت نفسه مما هي فيه من آفات ومما هي فيه من مرذول الصفات، ومما هي فيه من الركون إلى الشهوات والعادات، ومما هي فيه من خبائثها التي تمنعها من الطهر بحيث تترقى إلى الله تعالى، كلما ارتقت تلك النفس ووصلت إلى درجة أعلى.

المعنى التالي: **أن هناك ارتفاع خاص يرتفعه المرء كلما سجد سجدة لله تعالى حتى يصل إلى تلك الدرجة التي يرافق فيها النبي صلى الله عليه وسلم**؛ وإن كان لن يرافق النبي صلوات الله وسلامه عليه في درجته ولا مرتبته في الجنة أحد، وإنما كل ما يطمع إليه هؤلاء المجتهدون المجدون المجاهدون أن يكونوا قريبين منه قربًا يرونه به صلى الله عليه وسلم رؤية دائمة لا يصلون به إلى مرتبته؛ لأنه صلى الله عليه وسلم في منزلة الوسيلة لن يصل إليها أحد كائنًا من كان: لا نبي مرسل فضلاً عن غيره.

وليس مجرد أن يسجد المرء عدة سجدات في اليوم- كثيرة أو قليلة- تكون سببا لذلك وإن كان فضل الله تعالى واسعًا، وإنما السجود الذي يترقى به المرء إنما هو السجود الذي ترتفع به درجة المرء عند الله تعالى، ويتحقق فيه هذا التطهر الذي يكون سببا في ارتفاع درجته؛ حتى يصل درجة مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مقتضى قوله سبحانه وتعالى للنبي في درجات القرب العظيمة التي حصلها ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق: ١٩].

لما خاطب المولى سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في أول البعثة قائلا: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ **علم أهل الإيمان إذن أن ذلك طريقهم من بعده**، فإن كان ذلك القرب على خاطرهم، وكانوا متطلعين أو مشتاقين إلى شيء من هذه الدرجات، وإلى مصاحبة النبي صلى الله عليه وسلم، وكانوا يحزنون إن فقدوا يوما ما رؤيته المشرفة في الجنة مع الله تعالى، ينبغي عليهم إذن أن يقدموا كل ما يستطيعون في هذه الحياة الدنيا ليبلغوا تلك الدرجة من القرب.

المعنى التالي، هو أن النبي صلى الله عليه وسلم **يأمره أن يكون على حال السجود في كل وقت يتمكن فيه من السجود**، أي: الصلاة؛ لأنه لا يشرع للمرء أن يتقرب إلى الله تعالى بسجدة ليست مشروعة في دين الله تعالى، وإنما إما أن تدخل في سجدة من سجدات الصلاة، أو أن تكون سجدة مفردة مشروعة كسجود التلاوة أو سجود الشكر أو غيرها، **ومن ثم كان السجود المقصود هو الصلاة التي يصليها المرء لله تعالى يريد بها التقرب وارتفاع الدرجة حتى يصل إلى هذه الصحبة** للنبي صلى الله عليه وسلم فإن افتقد صحبته في الدنيا؛ فإنه متطلع إليها مشتاق لها في الآخرة.

وقد ذكر العلماء أن قوله: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق: ١٩] معناه: أنه يسجد ويقترب من الله تعالى، ولا يقترب من الله تعالى إلا بالقرب من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يقترب من الرسول إلا بالقرب من الله جل وعلا؛ فصار القرب من الله والقرب من الرسول لا انفكاك بينهما؛ أردت أن تقترب من الرسول فسكتك التقرب إلى الله، فإذا تقربت إلى الله كان طريقك للتقرب للرسول ومجاورته صلى الله عليه وسلم، وإذا أردت أن تقترب من الله فسكتك وطريقك أن تتقرب بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وأعماله إلى الله فكان ذلك هكذا منبنيًا على هذا الحال الحسن كما قال: ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] فصارت محبة الله تعالى طريقا لمحبة النبي صلى الله عليه وسلم، واتباع النبي طريقا لمحبة الله؛ فصارت القضية في النهاية كيفية أن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم متقربا إلى الله تعالى بما يكون سببا لمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومتقربا بسنة النبي بما يكون سببا لمحبة الله تعالى.

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم مثلًا في فضل الصلاة ما بين الظهر إلى العصر[1]، وأنها صلاة مشهودة تفتح فيها أبواب السماء؛ فإذا أراد المرء ذلك يأتي

---

(١) رواه مسلم (٨٣٢- باب إسلام عمرو بن عبسة) . ولفظه (عن أبي أمامة قال: قال عمرو بن عبسة السلمي كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارا فقعدت على راحلتي فقدمت عليه فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفيا جرءاء عليه قومه فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له ما أنت قال: أنا نبي فقلت: وما نبي قال: أرسلني الله فقلت: وبأي شيء أرسلك قال: أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لا يشرك به شيء قلت: له فمن معك على هذا قال حر وعبد قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به فقلت إني متبعك قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ألا ترى حالي وحال الناس ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني قال: فذهبت إلى أهلي وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وكنت في أهلي فجعلت أتخبر الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينة حتى قدم علي نفر من أهل يثرب من أهل المدينة فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة فقالوا: الناس إليه سراع وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك فقدمت المدينة فدخلت عليه فقلت: يا رسول الله أتعرفني قال: نعم أنت الذي لقيتني بمكة قال فقلت : بلى فقلت: يا نبي الله أخبرني عما علمك الله وأجهله أخبرني عن الصلاة قال: صل صلاة الصبح ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار ثم صل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى يستقل الظل بالرمح ثم أقصر عن الصلاة فإن حينئذ تسجر جهنم **فإذا أقبل الفيء فصل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى تصلي العصر** ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس فإنها تغرب بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار قال فقلت يا نبي الله فالوضوء حدثني عنه قال ما منكم رجل يقرب وضوءه فيتمضمض ويستنشق فينثر إلا خرت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أنامله مع الماء ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء ثم يغسل قدميه إلى الكعبين إلا خرت خطايا رجليه من أنامله مع الماء فإن هو قام فصلى فحمد الله وأثنى عليه ومجده بالذي هو له أهل وفرغ قلبه لله إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه فحدث عمرو بن عبسة بهذا الحديث أبا أمامة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أبو أمامة يا عمرو بن عبسة انظر ما تقول في مقام واحد يعطى هذا الرجل فقال عمرو يا أبا أمامة لقد كبرت سني ورق عظمي واقترب أجلي وما بي حاجة أن أكذب على الله ولا على رسول الله لو لم أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا حتى عد سبع مرات ما حدثت به أبدا ولكني سمعته أكثر من ذلك).

الشيطان ليخوفه، ويؤخره عن هذا السعي يقول له: أنت متعب الآن؛ أخر هذه الصلاة، دعها في الليل حتى تنفرد بالله تعالى، وحتى تخلو به يكون الوقت والنفس أصفى في الإقبال على الله، ثم تذهب هذه الصلاة فلا هو صلى بالنهار ولا هو صلى بالليل، وإذا به قد فرط في التقرب إلى الله تعالى والتقرب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

والسؤال الآن : لماذا كثرة السجود بالذات؟ يوضح ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم الذي يؤكد هذا المعنى من معاني المجاهدة: «**فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك بها درجة، وحط بها عنك خطيئة**»[1] وهذا هو الفيصل الذي به ترتفع أعمال المرء عند الله تعالى، وتخف به ذنوبه وسيئاته؛ فيستطيع حينئذ أن يسير إلى الله تبارك وتعالى.

لا يستطيع أن يسير إلى الله تعالى وهو محمل بالذنوب والخطايا، قد أُثقل كاهله بما ينوء به من هذه السيئات والجنايات في حق الله تعالى وحق الخلق، فلا يستطيع أن يسير؛ كيف تسير وأنت تحمل على ظهرك وكتفيك هذه الحمولة العظيمة من الذنوب والسيئات؟ فلما كانت عاقبة السجود كما قال: «**فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك بها درجة، وحط بها عنك خطيئة**» وكنت لا تزال في مجاهدتك على ذلك ترتفع درجة وتحط عنك خطيئة، ثم ترتفع درجة وتحط عنك خطيئة فإذا بك في نهاية المطاف أقرب إلى الله

---

(١) رواه أحمد (٥/٢٧٦ ، رقم ٢٢٤٣١) ، ومسلم (١/٣٥٣ ، رقم ٤٨٨) . ولفظه (عن معدان بن أبي طلحة: قال : لقيتُ ثوبانَ مولى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فقلتُ : أخبرني بعمل أعمَلُه يُدخلني الجنة - أو قلتُ : بأحبِّ الأعمال إلى الله- فسكتَ ، [ثم سألتُه فسكت] ، ثم سألتُه الثالثة ، فقال : سألتُ عن ذلك رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- فقال : عليكَ بكثرة السجود لله ، فإنَّكَ لا تسجدُ لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحَطَّ عنك بها خطيئة).

تعالى، أحب إلى الله تعالى، أخف في سيرك إلى الله تعالى بعد هذه الدرجات التي تصل إليها وإلى تلك الخطيئات التي تحط عنك، قد استجبت لله وللرسول كما قال: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] .

وهذا الباب لايزال مفتوحا لأهل الإيمان لأن هذا الحال الحسن ليس مختصا بربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه وحده، لأن قوله صلى الله عليه وسلم: «**فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك بها درجة، وحط بها عنك خطيئة**» وهي **وصية عامة للنبي صلى الله عليه وسلم يفتح بها الباب لأولئك المتقربين إلى الله تعالى**، الذين يودون أن يصلوا إلى شيء من هذه الدرجات التي يكونون فيها على درجة الأقربية من النبي صلى الله عليه وسلم.

إذن الباب قد فتح وهو مفتوح للمؤمنين المتقين أن يوازنوا كما وازن ربيعة بين أن يكونوا أقرب إلى النبي وبين أن يكونوا أحب للدنيا وأصغى إليها وأسمع لها وأسرع فيها وأكثر اجتهادًا في تحصيلها كما ذكرنا؛ فإما أن يكونوا كذلك وإما أن يمتثلوا قوله: «**أعني على نفسك**» ، ففي هذا الحديث لم يقل: «**أعني على نفسك** »، ولكن فتحها للمؤمنين المحبين المتقربين إلى الله تعالى بهذه الدرجات التي يودون الوصول بهذه القربات إلى درجة القرب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

في نهاية الأمر، علمت أنك في مجاهدتك مخير إذن أن تستكثر لترتفع درجاتك، أو أن تستقل فقد ملت إلى الدنيا وشهواتها، وقدمت الزائل الفاني على أن تكون قريبا من النبي صلى الله عليه وسلم مرتفع الدرجة عند الله تعالى.

انظر أيضا إلى مجاهدتهم في الصدقة: فلما نزلت آيات الصدقة دعا صلى الله عليه وسلم الناس إلى التصدق، وبذل مالهم لله تعالى؛ يقول عقبة بن عامر رضي الله عنه: لما نزلت آيات الصدقة كنا نحامل على ظهورنا(١) فقد جاهدوا أنفسهم على التصدق لله تعالى، وإن كانوا لا يملكون شيئًا، أو كانوا يملكون ما يكفيهم لنفقاتهم ونفقات بيتهم وأولادهم، فلم يقولوا: بركة من عند الله تعالى أننا لا نملك شيئًا، الحمد لله لن نتصدق؛ فاكتفوا بذلك ولم ينفقوا، كلا، ولكن حالهم كما ذكر الله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ** ﴾ [آل عمران: ١٣٤] لم يكونوا لينفقوا في السراء فقط حتى إذا جاءت الضراء أمسكوا أموالهم؛ ولكن كانوا يحملون الماء على ظهورهم بالأجر اليسير؛ ليتصدقوا منه؛ فجاء رجل بمال كثير فقال المنافقون: مراء، وجاء أحدهم بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، أو عن صاع هذا، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴿٧٩﴾ ﴾ [التوبة: ٧٩] ؛ إذن الدرجات واسعة بين هؤلاء وبين ما نحن فيه، أو بين ما ينبغي أن نكون عليه وما نتطلع إليه وما نحن مرتكنون فيه منغمسون فيه اليوم.

---

(١) سبق تخريجه.

وانظر كيف ينافس عمر أبا بكر رضي الله عنهما لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصدقة، يقول عمر رضي الله عنه: اليوم أسبق أبا بكر إن سابقته يوما، فجاء عمر بنصف ماله، ولما سأله الرسول صلى الله عليه وسلم ماذا ترك لأهله قال: ترك لهم مثله؛ فجاء أبو بكر رضي الله عنه بماله كله وقال عن أهله: تركت لهم الله ورسوله. قال عمر: لا أسابقه أبدا .

إن هؤلاء المؤمنين المتقين إنما كانت حياتهم لا تخلو في نهارهم وليلهم من المجاهدة

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [البقرة: ٢٧٤]..

ليلاً ونهارًا سرًا وعلانية لم يكونوا ليتأخروا لحظة واحدة في ليلهم ونهارهم سرًا وعلانية أن يبذلوا ذلك لله تعالى، فضلا عن أن يبذلوا صلاتهم وقيامهم وليلهم وسهرهم، فضلا عن أن يسيروا ليلهم، وأن يسيروا نهارهم جهادا في سبيل الله.

النقطة التالية هي أن النبي صلى الله عليه وسلم **كانت مجاهدته تزيد بازدياد الوقت، وتزيد بازدياد الأحوال وتغيرها**..

ومثال ذلك القيام في جوف الليل، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم حتى تتشقق قدماه من طول القيام؛ فتقول له السيدة عائشة في ذلك فيقول: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»..[1]

(١) رواه البخاري (٤/١٨٣٠ رقم ٤٥٥٦) ومسلم (٨/١٤١ رقم ٧٣٠٤) ولفظه (عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلاَهُ قَالَتْ عَائِشَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فَقَالَ « يَا عَائِشَةُ أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا »).

وكذلك إذا دخل العشر جد واجتهد وشد المئزر[1] ؛ فكانت أحوالهم كلها في الاجتهاد فإذا جاءت أيام البركة والخير ازدادوا اجتهادا، وإذا جاءت أيام هي أحب إلى الله تعالى ازداد اجتهادهم وبذلهم، وازداد جهدهم وعطاؤهم، وازدادت بركة الله تعالى لهم، وكذلك وجدناه في الجهاد يقاتل في سبيل الله، وجدناه في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجدناه في السعي على مصالح المسلمين، وجدناه في الصدقة، وهكذا.

لذلك ينبغي أن يكون حال المؤمنين اليوم: **أنهم في كل أحوالهم يجاهدون في سبيل الله**، وعندما تأتي عليهم أيام الاجتهاد فإذا بهم أشد اجتهادا لله جل وعلا، لتتنزل عليهم بركة الله تعالى في العلم والعمل والدعوة والبذل والصلاة والقيام والصدقة والجهاد.

وفي النهاية نشير إلى **أبواب وطرق المجاهدة التي ذكرها ابن القيم في زاد المعاد** في كلامه عن قضية المجاهدة، فقد قسمها إلى أربع مراتب: جهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد الكفار وجهاد المنافقين.

وقسم جهاد النفس أيضا إلى أربع مراتب:

الأولى : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين .

---

(٢) رواه البخاري (١٩٢٠) ومسلم (١١٧٤). ولفظه (عَنِ عائشة - رضي الله عنها - : قالت : «كان رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- إذا دخل العَشْرُ الأواخر من رمضان أحيى الليلَ ، وأيقظَ أهلَه ، وَجدَّ ، وشَدَّ المِئْزَرَ).

الثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمُه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله .

الرابعة : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله.

يقول ابن القيم: فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق ويعمل به ويُعلمه فمن علم وعمل وعلَّم فذاك يدعى عظيما في ملكوت السماوات.

والنوع الثاني من الجهاد الذي ذكره ابن القيم هو **جهاد الشيطان** وهو على مرتبتين كما ذكر:

إحداهما : جهاده على دفع ما يلقى إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية : جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات.

يقول: فالجهاد الأول يكون بعده اليقين والثاني يكون بعده الصبر قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]

فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة واليقين يدفع الشكوك والشبهات[1].

ثالثًا: تفسير آيات المجاهدة

وأول الأشياء التي ينبغي أن يعلمها المرء، أن معرفته المعاني الجميلة لكلمات الله تعالى المنيرة هو **أهم الأسباب المعينة على المجاهدة؛ كيف يستعين بالمرء بكلام الله تعالى على أن يجاهد نفسه**، وأن تكون المجاهدة من همه، **فكلما ضعفت نفس المرء عن المجاهدة تذكر هذه الآيات فكانت مددا له ليواصل المجاهدة مرة أخرى**؛ وليعلم كيف يتقوى على المجاهدة؛ ولتجعل أهل الإيمان مجتهدين مجدين، قد تركوا لباس النوم والكسل والدعة وظهر عليهم الخوف والخشوع والإشفاق والخشية، ووجدتهم مشفقين مهتمين وكذلك ظهر عليهم المسارعة إلى الله تعالى والمسابقة في العمل الصالح والمنافسة على تحصيل الدرجات العلى والقرب من الله سبحانه وتعالى، وفي نفس الوقت أن تكون هذه المجاهدة طريقه الموصل إلى الله تعالى، وتكون الطريق المحبب إليه الذي لا يستغني عنه ولا يمل منه ولا يقصر فيه.

---

(١) يقول ابن القيم رحمه الله في باقي مراتب الجهاد: [وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب : بالقلب واللسان والمال والنفس وجهاد الكفار أخص باليد وجهاد المنافقين أخص باللسان. وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فثلاث مراتب : الأولى : باليد إذا قدر فإن عجز انتقل إلى اللسان فإن عجز جاهد بقلبه، فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد و من مات و لم يغز و لم يحدث نفسة بالغزو مات على شعبة من النفاق] انتهى كلامه. انظر : زاد المعاد في هدي خير العباد- الجزء الثالث، الناشر : مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية ،الطبعة الرابعة عشر ، ١٤٠٧ — ١٩٨٦، تحقيق : شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط.

وأول هذه الآى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]..

والثانية قوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ﴾ [الحج: ٧٨].

وقوله سبحانه في الآية الأولى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾ كأنه قسم من المولى سبحانه وتعالى بأن الذين جاهدوا فينا لتحقق هذا الكلام ووقوعه قطعا وصدقا وحقا لا مرية فيه ولا شك أنه سيهديهم سبله، لم يقل: سبيلنا، وإنما قال: ﴿ سُبُلَنَاۚ ﴾ لتبين عظم الوارد من الله تعالى عليهم؛ ولتبين عظم ما يفتح الله تعالى عليهم به سبحانه وتعالى من تأييدهم في طريقه، ومن المنح والألطاف التي تنزل عليهم، ومن شهود الرحمة التي تتجلى لهم من الله جل وعلا؛ سيهديهم سبحانه وتعالى طرقا جميلة كثيرة، من شهود المنن والأفضال والنعم والفتوحات الإلهية عليهم التي تكون سبب تثبيتهم، وسبب قربهم من الله تعالى وسبب شرح صدورهم وتثبيت أقدامهم، وسبب قوتهم ومددهم وسيرهم إلى الله تعالى، وسبب بركتهم وسبب تجنبهم الشيطان والنفس والهوى، لأنهم في هذه الحال قد جاهدوا في الله، وحاولوا أن يقطعوا هذه المكاره التي حجبت بها الجنة، أو تلك الشهوات التي حجبت بها النار.

الآية التالية المرتبطة بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٨] وهي آية مليئة بالألفاظ الموحية الجميلة المنيرة من كلام الله تعالى والهادية للمرء في طريق المجاهدة.

ونوضح كيف تكون هذه الآية عونًا عظيمًا للمرء، وطريقًا كلما نظر فيه ساعده **وأخذ بيده وقلبه على الثبات في مواجهة جيوش الشهوة والمعصية والغفلة**، وقوى قلبه وثبت أقدامه على أن يواصل طريق التقرب إلى الله تعالى، وأن يواصل طريق المحبة للنبي صلى الله عليه وسلم.

فقوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ يعني: جاهدوا في الله الجهاد الحق وهو ترتيب الآية، يعني: الجهاد الخالص الذي لا شائبة فيه من تقصير، أي: جاهدوا في الله تعالى أعظم الجهاد وأحسنه وأجمله وأقواه وأعلاه وأفضله، وكأنه يقول: هذا الجهاد الذي تجاهدون به هو في صالحكم على سبيل الشكر ليس على سبيل أن تمنوا به على الله، أو أن تنتظروا به شيئًا من الله.

وهذا هو الحال الذي ينبغي أن تضعه نصب عينيك أول ما تضع ؛ لأنك بغير هذا الجهاد الحسن، بغير هذا الجهاد الحق، بغير هذا الجهاد الخالص لله تعالى لن تحصل طريق الله تعالى؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم عندما سئل أي الجهاد في سبيل الله؟ قال في نهاية المطاف: «**من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٧١٤ ، رقم ٧٠٢٠) ، ومسلم (٣/١٥١٣ ، رقم ١٩٠٤). ولفظه (عن أَبو مُوسَى الأشعري أَنَّ رَجُلاً أَعْرَابِيًّا أَتَى النبي -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذْكَرَ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ أَعْلَى فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ).

وإن كنا نتكلم في جهاد النفس؛ فالمقصود واحد وهو أنه حتى وأنت تجاهد نفسك إنما تجاهد لتكون كلمة الله تعالى هي العليا سواء في تصرفك في حكمك في تحكيمك في أخذك كلام الله تعالى بقوة، في سيرك على منهج الله تعالى وتعاليمه وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ومحبته، فهذه هي الأولى التي يقيس بها المرء نفسه حال سيره في طريق المجاهدة.

والثانية **وهي من أهم مسائل الدين** أن يكون هذا الجهاد خالصا لا تقصير فيه ، **لأنه كلما قصر المرء في جهاد نفسه ظهرت عليه آثار هذا التقصير في ساعتها**، أنت قد عزمت أن تقوم ليلتك قصرت.. ضاعت الليلة، عزمت على أن تقرأ وردك قصرت.. ضاع وردك، عزمت على الذكر، أو على الصيام، أو على القيام بأعمال الدين أو العلم، أو على أن تصل أرحامك وأن تقوم بمهام الدين والمسلمين، قصرت في كل ذلك ..ضاع هذا العمل، **عندما يضيع عملك بسبب تقصيرك في المجاهدة تنزل درجتك فجأة ولابد**.

وانظر إلى الحال السيئة التي تنتقل إليها عندما يقع منك ذلك، إن ضاعت ليلتك صار نهارك سيئًا، وذكرك ضعيف وقلبك ضعيف ولا تستطيع أن تواصل في يومك فإذا كانت ليلتك ليلة سيئة كان يومك على نفس الحال السيئ من التقصير ومن الغفلة ومن تراكم المعصية، وهكذا تستحكم المعصية ليلة بعد ليلة حتى يبعد ويطول بك التقصير إلى أيام طويلة يضعف فيها القلب عن الرجوع إلى الله تعالى.

والنقطة التالية، إنه إذا كانت كل سجدة ترفعك درجة، وتحط عنك خطيئة، كان العقاب كذلك، **إذا قصرت ظهر أثر التقصير في ساعتها، وظهر عقاب الله تعالى لمن لم يوفي**

معه سبحانه وتعالى؛ ويرى نفسه وقد حلت عليها الغفلة والبعد؛ فإن قصر وجد غب هذا التقصير، وإن جاهد وجد روح هذه المجاهدة، ووجد ارتفاع درجاتها.

نستكمل الآية: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ وهي التالية التي تعين المرء على أن يستمر في مجاهدته، وألا يطاوع نفسه على التقصير وعلى الكسل، وألا ينام نوم الغفلة الذي يبعده عن هذه الدرجات أن يعلم أنه : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ ومسألة الاجتباء هي أعظم مسائل اختيار الرب لعباده.

فالاجتباء يعني: الاصطفاء والاختيار، فيكون المعني: هو جل وعلا اصطفاكم واختاركم لأن تتلقوا أمور هذا الدين، وأن تتلقوا شرعه، وأن تسيروا مع الله جل وعلا في نصرة دينه ونشره والقيام ضد المعاندين له، وأن تجاهدوا أنفسكم الجهاد الذي يرفعكم عند الله تعالى الرفعة العالية والدرجة البليغة العظيمة.

لن ينتصر المؤمنون في خارجهم إلا وقد انتصروا في داخلهم، لن ينتصروا على أحد في الخارج إلا وقد انتصروا على أنفسهم وهواهم وشهواتهم وشيطانهم، إذا لم ينتصروا على ذلك فليس هناك أمل في أن ينتصروا على عدوهم، وأن يرفعوا راية الإسلام، وأن تعود خفاقة، كما فعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

لما قال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ بين ذلك أن العلة التي أمركم الله تعالى بأن تجاهدوا بسببها هو اجتباؤكم، فيكون جهادكم إذن استشعارا لهذه المسؤولية؛ أم أنه إذا اجتباكم واصطفاكم فأول ما تبدءون به جهادكم لله تعالى أن تخذلوا دين الله تعالى وأن تقصروا فيه، وأن تتراجعوا عنه، وأن تتكاسلوا في القيام به،

وأن تقدموا الدنيا وأعمالها عليه، وأن تقدموا الغفلة والشهوة، وأن تقدموا نسيان الموت على تذكر السير إلى الله تعالى، وأن تقدموا ما تنفقون على أنفسكم وأولادكم على ما تدخرون عند الله تبارك وتعالى من وقت ومال وجهد !!؟

هو اجتباكم واصطفاكم واختاركم أنتم لذلك، فجاهدوا إذن حق الجهاد لتشكروا نعمة الاجتباء لله تعالى، وحق الاصطفاء من الله تعالى؛ ثم إذا بهؤلاء يقومون بعكس هذا الشكر الذي طلبه منهم، لأنه لما قال: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] أتبعها بقوله ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾ يعني: إن تركتكم شكر هذه النعم معناه كفران النعم ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾.

عندما تجد نفسك وقد ضعفت وترددت وركنت إلى الكسل ضع أمامها قوله: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ اعلم أنك قد اجتباك الله تعالى واصطفاك لهذه المهمة، وأنت لا بد وأن تكون على مستوى هذه المسؤولية؛ فإنه ما اجتباك وما اصطفاك سبحانه وتعالى إلا وقد قدر لك أن تكون أهلا لمثل هذا الحال وأهلا لمثل هذه الدرجة التي تفرط فيها، فإذا لم تقم بها يوشك أن يكون الاستبدال الذي سنذكر: ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

ماذا يكون الحال إذن لو استبدلت؟ لو قست أيها المؤمن ما أنت فيه بما يمكن أن تكون عليه من عدم الاصطفاء والاجتباء لا أظنك تختار هذا الطريق - يعني: لو قست نفسك بمن لا يصلي أو لا يعرف طريق الله تعالى - لعلمت الفارق الضخم في هذا

الاصطفاء والاجتباء من الله تعالى، ولعلمت أنك ما شكرت الله تعالى على هذه النعمة التي أولاك إياها وأعطاكها سبحانه وتعالى، كيف إذن تكون قد جاهدت هذا الجهاد مع أنك لا تستطيع أن تشكر !

النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**ركعتان مما تحقرون من أعمالكم خير من الدنيا وما فيها**»[1] فلو قستها بالدنيا كلها، لوجدت هاتين الركعتين في ميزانك، ووجدت الدنيا كلها في صندوق الزبالة كما يقال ! إن هذه الحال الحسنه من الاجتباء الذي لا يفكر فيه المرء، ينبغي أن يكون الدافع له على استمرار المجاهدة، والدافع له على التحمل والبذل.

عندما يسمع المرء هذا الكلام قد يقول بلسان الحال: هذا كلام صعب، المجاهدة صعبة والدنيا اليوم لا تترك للمرء وقتا، ولا يوجد جهد والأولاد يأخذون الوقت والعمل يأخذ كذا... وهذا الكلام الفارغ الذي لو محصته على الحقيقة وجدته غير صحيح؛ فأنت تضيع وقتًا طويلاً لا تستفيد منه في شيء لله تعالى، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال: «**نعمتان مغبون فيهما** --ظلم نفسه فيهما- **كثير من الناس: الصحة والفراغ**»[2].

---

(١) أخرجه الطبراني (٨/٢٠٩ رقم ٧٨٤٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٢٥٧) : فيه عبيد الله بن زحر وعلي بن يزيد وكلاهما ضعيف. وقال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٨٨) : صحيح بمجموع طرقه.

(٢) رواه البخاري (٦٠٤٩)، ولفظه (عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه و سلم: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ).

فأنت لو نظرت فيما تضيع من وقتك وجهدك وعمرك، في غير ما تحقق به هذا المعاش الذي تتعلل به، لعلمت أنك تضيع وقتا وجهدا كبيرا، لو قلنا حتى إنك صرفت هذا الوقت لمعاشك الذي أنت فيه لتغير حالك في الدنيا ! كذلك لو صرفته لله تعالى والآخرة لتغير حال الآخرة.

كن صادقًا مع نفسك واحسب وقتك الذي يمر عليك في يومك واحسب ساعاتك التي تقضيها في الغفلة وفي ترك الذكر وفي الأكل والشرب والحمام والكلام والأولاد والنساء والائتناس بالخلق **احسبها أيها المسكين قبل أن تحاسب عليها وقبل أن تتعلل أنك لا تجد وقتا** ثم إذا بك تجد الوقت الطويل لشهواتك ولما لا فائدة فيه، ثم أنت لا تحزن على ضياعه ولا فقده ولا تتألم لما ضاع من عمرك في غير ما يقربك إلى ربك، ويرفع درجتك عنده، ويعلي أسهمك مع أولئك السابقين الأولين.

لأنه: «**لن تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه**»[1]، فلا بد أن تحاسب نفسك قبل حساب الشدة، فإن لم تحاسبها اليوم ازداد حسابك عند الله تبارك وتعالى، إن حاسبتها وشددت عليها يرجى أن تستقيم هذه النفس، وأن يخف حسابك.. ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ [المطففين: ٦].

---

(١) رواه الترمذي (٤/٦١٢ ، رقم ٢٤١٧) وقال : حسن صحيح. وأبو يعلى (١٣/٤٢٨ ، رقم ٧٤٣٤) ، وأبو نعيم في الحلية (١٠/٢٣٢) . ولفظه (عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه : أنَّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قال : «لا تزولُ قدَمَا عبد يومَ القيامة ، حتى يُسألَ عن أربع : عن عُمُره فيما أفناه ؟ وعن عِلْمِه ما عمِل به ؟ وعن ما له من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيما أبلاه ؟»).

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ لا تتعلل إذن أيها المتعلل، لأن المولى سبحانه وتعالى قال: إن هذا الدين لا حرج فيه، بل بعث النبي بالحنيفية السمحة وكما قال:﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] **وما طلبه منك من حق الجهاد إنما هو في مقدورك وفي سعيك وفي إمكانك؛ لأنه لم يجعل عليك في الدين من حرج، ولا مشقة ولا عسر ولا ضيق ولا يمكن أن ترى في صدرك منه ما يمنعك عن أن تقوم به.**

بل ينضم إلى هذا كما يقول العلماء، مقصد السهولة وتحصيل مقصود الشارع؛ فينعم أهل الإيمان؛ لأنهم يحصلون مقصود الشارع بذلك التيسير، وتلك السهولة التي كتبها الله تعالى على شريعته السمحة.

أنت إذن من أساء لنفسه، **وأنت الذي قد هول لك الشيطان وعظم في عينك أمور الدين، وهو الذي صعب عليك ما هو ميسر، وهو الذي ضيق عليك ما هو موسع حتى أيأسك من السير إلى الله تعالى،** ولو ابتدأت السير بقوة الله، ولو ابتدأت السير بمعونة الله، ولو ابتدأت السير مستمدا مددك من الله تعالى وجدت الطريق سهلا، ووجدت المجاهدة فيه أسهل بدليل أن الصحابة رضوان الله عليهم قد جاهدوا مع أنهم لم يكونوا يملكون شيئًا مما تملك أنت اليوم ومما تستطيع به أن تقوم به من أمور الشرع الشريف، وتحصل به ذلك المقصود، وتحصل به كذلك شكر هذا الاجتباء وشكر هذا الاصطفاء.

كلما إذن همت نفسك بالتكاسل عن هذا الجهاد، واسودت في وجهك هذه السبل، وضاقت بك هذه الطرق؛ علمت أن ذلك كله تخويف الشيطان وتسويله وأنه يقطع الطريق عليك إلى الله تعالى، وأن الأمر أسهل من ذلك، وأن الأمر أيسر من ذلك، وأنك مهما جاهدت فهو عون الله ومدده؛ حتى لو قتلت في سبيل الله كما أخبر النبي صلى

الله عليه وسلم، ما تشعر بألم هذا القتل إلا كقرصة[1]، فحتى هذا القتل الذي تتصوره شيئًا صعبًا وشديدًا على النفس، إذا به ليس له ألم ولا وجع ولا تحس به هذا الإحساس الذي يمنعك من أن تلقي بنفسك إلى الله تعالى، وأن تحملها على أن تقوم بأوامر الشرع الشريف عالما أن العواقب التي رتبها الشارع هي أعظم العواقب وأحسنها، وأن هذه الشريعة هي أيسرها وأخفها، ولا حرج فيها ولا ضيق ولا شدة، بل هي متيسرة لكل أحد.

جاهد نفسك إذن في هذا القرآن، فهو كذلك ميسر، كما قال : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: ١٧] حتى القرآن الذي قد يسره الله تعالى تركت المجاهدة فيه؟ أين أنت من المجاهدة فيه، وأخذ حظك منه ووضع دواء هذا القرآن الكريم على أمراضك وعللك؛ لتستشفي منها: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤].

الاجتباء يرفع قيمة الأمة

وهناك معنى آخر في قوله: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ وهو أن **الاجتباء مما تعظم به قيمة هذه الأمة:** قد اجتباهم لدينه سبحانه وتعالى ، واجتباهم على العالمين، فهم خير أمة أخرجت للناس، فلما كانت أمة النبي صلى الله عليه

(١) رواه أحمد (٢/٢٩٧ ، رقم ٧٩٤٠) ، والترمذي (٤/١٩٠ ، رقم ١٦٦٨) وقال : حسن صحيح غريب. ولفظه (عن أبي هريرة رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه و سلم: (ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة).

وسلم متميزة على هذا النحو كان الأمر بأن تشكر الله تعالى، وأن تجاهد في سبيله هو المطلوب الذي تسعى إليه هذه الشريعة.

وذلك لأن المرء لا يتمكن من رفع راية الدين واستقبال أوامر الشرع بالمحبة، وأن يبذل نفسه وماله إلا أن تكون المجاهدة أحب إليه من كل شيء، ولا يتمكن المرء من المجاهدة إلا أن يجاهد نفسه وهواه وشيطانه، فإذا لم يجاهد ذلك ويتحمل مسؤوليته في هذا الأمر فكيف يتحقق بهذه الخيرية التي ذكر الله تعالى ؟

واجتباكم كذلك تعني: **فضَّلكم**، ففضل أمة النبي صلى الله عليه وسلم على جميع الأمم، ومنه أنه فضل كل طبقة منها على كل طبقة تقابلها من كل أمة كانت؛ واجتبى كل طبقة منهم على كل طبقة في كل أمة؛ **ألا يستحق كل ذلك من هؤلاء المجتبين المصطفين أن يجاهدوا، وأن يبذلوا شيئًا؟** ثم هُم بعد ذلك يعلمون بأن ما بذلوه من مجاهدة لله تعالى إنما هو في حدود ما يسره الله تبارك وتعالى، وأن الله تعالى لما شرع لهم ذلك وأمرهم به إنما شرع ما في إمكانهم وشرع لهم ما يستطيعون أن يقوموا به.

وهناك نقطة مهمة وهي: **إذا كان الله تبارك وتعالى قد اجتباهم فقد اجتبى دينهم كذلك، وإن كان الله تعالى قد اصطفاهم فإنما اصطفاهم باصطفاء هذا الدين**؛ لأنه لما اصطفى لهم هذا الدين وأحب لهم هذا الدين كان هذا الدين هو الأعلى وهو الأجمل وهو الأكمل وهو الأشمل فيما شرع الله تبارك وتعالى للمؤمنين من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة؛ لذلك كان من خصائص هذا الدين التي تدل على اجتباء الدين كما اجتبى المسلمين هو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾، فهو دين

سمح، دين جميل، دين لا تعب فيه ولا مشقة **وما يسمى فيه من مشقة وتعب إنما هو شرف المرء، إنما هو نعيمه ولذته وسروره وقرة عينه**، فلا يمكن لامرىء يحب ربه - فضلا عن المجاهدين لارتفاع درجة المحبة في قلوبهم - أن يقول أبدًا: إن في هذا الدين هذه المشقة وهذا التعب الذي لا أستطيعه، وفيه الذي لا أتمكن من القيام به...لا، كل هذه التكاليف التي تظن أنها تكاليف، وأنها مشقات وأنها كذا وكذا مما تسمع من هذه الألفاظ إنما هي تنعمك وتلذذك، الذي اجتباك الله تبارك وتعالى لتحمله وتتشرف به.

وهذه التي ينبغي أن يعدلها المرء في تصرفاته : كيف تكون لذته في القيام بأوامر الشرع؟ كيف تكون لذته في المجاهدة؟ كيف لا يتنعم وتقر عينه إذا وقف أمام الله تعالى؟ كيف لا ينعم ويفوز فوزا عظيما إذا ما قتل في سبيل الله سبحانه وتعالى؟ وهو يعلم أن من قتل في سبيل الله إنما هم أحياء كما قال: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

من أين جاءت إذن المشقة والتعب والحرج التي جعلتك تتعلل وتعتذر وتبدي هذه التعللات التي تمنعك من أن تنعم نفسك في الدنيا قبل الآخرة، وأن تفوز بنعيمها قبل أن تراه على الحقيقة: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ﴾ [التوبة: ٧٢] ؟

نستكمل: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ ﴾ وملته التي أملاها الله تعالى عليه إذ قال له: أسلم، قال: أسلمت لله رب العالمين ، وهو مرتبط بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ ﴾

[النحل: ١٢٠-١٢١] ؛ فهذه الملة جعلته أمة قانتا لله حنيفًا، ولذلك جاء الاجتباء في هذه الآية مع إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى:﴿ ٱجْتَبَىٰهُ ﴾.

وفي آيتنا هذه قال: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ فلما كان إبراهيم عندما قيل له: أسلم. قال: أسلمت، ولما قيل له: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤] فلما أتم كلمات الله تعالى ولما أسلم لربه ذلك الإسلام أمر المؤمنين من أمة محمد أن يكونوا على هذه الحال، لأنه سبحانه ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ لهذا الذي اجتبى له إبراهيم عليه السلام؛ بل قد اجتبى من أمة النبي مثل ما اجتبى لإبراهيم، بل إن أمة النبي في الذروة من هذا الاجتباء والاصطفاء هؤلاء الذين اجتباهم وهداهم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى: ١٣]، فإذا ما تحققوا بذلك اجتباهم وهداهم، أولئك الذين حفظهم ورعاهم، وجعلهم من خُلَّص عباده، ومن كُمَّل أوليائه الذين لم يبدلوا وساروا وتحملوا حينئذ اجتباهم سبحانه وتعالى واصطفاهم وأسبغ عليهم نعمه، وأنزلهم تلك المنزلة التي نرى فيها التوفيق، ونرى فيها المحبة، ونرى فيها الإحاطة، ونرى فيها الحفظ، ونرى فيها رحمة الله تعالى وبركته، تتنزل عليهم ملائكته وتغشاهم سكينته سبحانه وتعالى.

نستكمل: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ ، هو: عائدة على الله تعالى؛ وقد يقول القائل: هو عائدة على إبراهيم عليه السلام، ومن قال من أهل العلم: عائدة على إبراهيم رجح أنها عائدة إلى ضمير الجلالة فيكون المعنى: وجاهدوا في الله حق جهاده

هو اجتباكم وهو سماكم المسلمين من قبل، ثم يقول: ﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ فعادت الآيات مرة أخرى إلى قضية الشكر!

الذي ينظر في الآيات نظر التدقيق يرى الآية قد بدئت بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ ثم عادت الآية فقالت: ﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ فطلبت الآيات من أهل الإيمان في البداية: ﴿ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ ﴾ ثم في النهاية: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾، فكان المعنى أن العلة من ذلك أن الله اجتباهم، فعليهم أن يشكروا هذه النعمة، ثم بعد أن بين لهم شرعه واجتباءه لهذا الشرع، وبين لهم قيمتهم ومسؤوليتهم واجتباءهم واصطفاءهم لتحمل هذا الاجتباء والاصطفاء لهذا الشرع المصطفى، إذا به يعود مرة أخرى ليؤكد على قضية الشكر مرة أخرى، فأمرهم بأن يثبتوا على هذا الشكر، وأن يزدادوا منه، وأن يعتصموا بالله في القيام به: ﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

ها قد اتضح طريق المجاهدة واتضح كونه طريقا يسيرا، وفي نفس الوقت اتضحت قيمة المجاهدة وعاقبتها الحسنى من الله تعالى، والمؤمنون الخائفون على دنياهم وأموالهم وجاههم وسلطانهم قد طمأنهم الله تعالى أنهم إن سلكوا طريقه، فإنه جل وعلا

يعطيهم هذه الدنيا التي منعتهم أن يجاهدوا حتى يصلوا إليه، وأن يجاهدوا حتى يترقوا في طريقه، وأن ترتفع درجتهم إلى درجة القرب من الله تعالى والقرب من النبي صلى الله عليه وسلم.

علمت إذن أيها الخائف على آخرتك، الحذر من لقاء ربك أنك كلما تقدمت في هذه المجاهدة كان ذلك سبيل المحبة لله تعالى وسبيل الأنس به سبحانه وتعالى وسبيل التعلق به جل وعلا والطمأنينة بذكره، وسبيل محبة لقاء الله كما قال: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله** –كحالنا السيئ في هذه الأيام– **كره الله لقاءه**» [1].

وتأتي الآية التالية على العكس من الآية السابقة، وهو قوله: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ [العنكبوت: ٦] ، كلما توانت نفسك وتكاسلت إذن عن أن تجاهد الجهاد الحق، كلما تكاسلت نفسك عن أن تقوم بمصلحتها التي يسرها الله تعالى لها في دينه، كلما تكاسلت نفسك عن أن تدفع ضريبة الشكر لهذا الاجتباء والاصطفاء، كلما تكاسلت نفسك وتراجعت عن عهدك مع الله تبارك وتعالى أن تبذل لنفسك ودينك ما يكون سبب رفعتك وعلو درجتك عند الله تعالى، تأتيك هذه الآية لتقول لك: **﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾** تلك هي الحقيقة: إن جاهدت فلنفسك، وإن تركت فلنفسك.

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٣) ، ومسلم (٦٩٩٦) . ولفظه (عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامت أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ: « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ ».).

وقد ورد ذلك المعنى في كلام الله جل وعلا من قبل لما قال: ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٩] ، إذن أنت مطالب حينئذ بأن تذكر نفسك بأن خير ذلك وعاقبة ذلك ونتيجة ذلك من علو الدرجة وارتفاع المنزلة وكثرة الفضل وعظيم الثواب وعظيم الأجر من الله تبارك وتعالى: **كل ذلك عائد إليك إن تركته من الذي قد خسر؟ الله تعالى؟ كلا...فهو سبحانه لا ينفعه إيمانكم ولا تضره معصيتكم،** ولو آمن الخلق كلهم جنهم وإنسهم ما زاد في ملكه شيئًا، ولو كفروا كلهم ما نقص ذلك من ملكه شيئًا [1].

بعد أن بين لك وقطع عذرك وحجتك وقواك وبين لك طريقه سبحانه وتعالى وبين لك كذلك أسباب نجاتك وأسباب فوزك وأسباب نعيمك في الدنيا والآخرة قال

---

(١) رواه مسلم (١٦/٨، رقم ٦٧٣٧). ولفظه (عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ).

لك هذا القول في نهاية المطاف: إن جاهدت لنفسك، لم تجاهد لنفسك ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت: ٤٦] ها قد افترش الطريق واتضح ومن سلك سبيل المجاهدة فهو ميسر له، ومن سلك طريق الكفر والظلم والفسق والتقصير والتفريط والكسل والتواني وكل ذلك على هذه الدرجات المختلفة فهو ميسر له «**كل ميسر لما خلق له**»[1].

فإن اخترت طريق البعد كنت أنت السبب:﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴾ [الصف: ٥]، أما من أقبلوا على الله فقد أقبل الله تعالى عليهم، وإذا ما تحققوا بذلك، وعلم الله جل وعلا صدق نيتهم وإخلاصهم، فلينتظروا هنالك فعلاً من الله جل وعلا قيمة بذلهم وجهدهم بأن يقويهم ويمدهم بمدده سبحانه وتعالى.

صفات المجاهدين

وهي الآثار والمظاهر التي ينبغي أن تتحقق في أهل الإيمان، لتدل على أنهم قد سلكوا طريق المجاهدة، وأن يكون هؤلاء ممن يطلق عليهم: **إنهم هم الذين جاهدوا**

---

(١) رواه أحمد (٤/٤٢٧ ، رقم ١٩٨٤٧) ، والبخاري (٦/٢٧٤٥ ، رقم ٧١١٢) ، ومسلم (٤/٢٠٤١ ، رقم ٢٦٤٩). ولفظه (عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - : قال : قال رجل: «يا رسول الله : أَعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم ، قال :ففيم يعمل العاملون ؟ قال : كلٌ مُيَسَّر لما خُلق له» . وفي رواية البخاري «أيُعْرَفُ أهل الجنة من النار ؟ قال : نعم ، قال : فَلِمَ يعمل العاملون ؟ قال : كلٌ يعمل لما خُلِق له ، أو لما يُسِّر له»).

أنفسهم كما قال المولى:﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فما هي الصفات التي ينبغي أن تظهر على هؤلاء المؤمنين حتى يصدق عليهم أنهم جاهدوا في الله تعالى الجهاد الحسن الجهاد الحق؟

يعني: أن المجاهدين هؤلاء تجدهم في أحوالهم في ليلهم ونهارهم في هذا النشاط الدائم الذي كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، إذا نادى منادي الجهاد وجدتهم في أول الصفوف ، إذا نادى منادي القيام وجدتهم في أول الصفوف قائمين لله تعالى، إذا نادى منادي الذكر وجدتهم هم الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، إذا نادى منادي الصلاة وجدتهم في الصف الأول وهكذا في كل الأحوال فوجدتهم هم أهل الدأب والنشاط تضعف أبدانهم ولا تضعف قلوبهم عن مواصلة السير إلى الله تعالى.

وفي نفس الوقت لا تراهم متكاسلين متباطئين يؤجلون أعمالهم إلى الغد، وينتظرون أن يأتي الغد ليفعلوا كذا وكذا لا، وإنما هم ينتهزون فرصة العمر القصير ليسارعوا إلى الله تعالى، لينافسوا في سيرهم إلى الله تعالى، يعني كما يقال: **هم أبناء يومهم، هم أبناء ساعتهم، ساعتهم في الصلاة إذن صلاتهم أحسن صلاة، ساعتهم في النفقة نفقتهم أعظم النفقة، ساعتهم في الجهاد جهادهم أعظم الجهاد، ساعتهم في الدعوة دعوتهم أحسن الدعوة، ساعتهم في العلم علمهم أعظم العلوم، ساعتهم في البذل بذلهم أعظم البذل، ساعتهم في القيام قيامهم أعظم القيام وأحلى القيام وأقبل القيام على الله تعالى، وهكذا هم أبناء الساعة التي هم فيها.**

تقول الآية الكريمة التي نزلت في تصويرهم: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥].

إجمالا، فإن المجاهدين لهم صفات أولها: المسارعة إلى الخير، دوام النشاط والهمة العالية في القيام بأعمال الشرع، ألا يملون وألا يكلون من السير وراء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أن يهتموا بإصلاح قلوبهم وآخرتهم، أن يهتموا بإصلاح جوهر العمل وحقيقة هذه الأعمال مع القيام بظاهر الأعمال، يعني: ألا يقفوا على ظواهر الأعمال ويحاولوا أن يحصلوها، بل همهم كله أن تكون أعمالهم على المحل الأكمل على أحسن حال يودون أن يلاقوا به ربهم سبحانه وتعالى.

وهذه الآية تبين بعض صفات المتقين من أمة النبي صلى الله عليه وسلم، غير أن لها شبها في صفات الأمم السابقة، ونحن نصف هؤلاء ولعل الله تعالى أن يرزقنا الاتصاف يعني: نعوذ بالله من أن نصف الخير وألا نتصف به، وإنما نود أن نصف اليوم هذه الأفعال مع نية الاتصاف بها؛ لأن هؤلاء تسيرهم النوايا الصالحة إلى الله تعالى ولا تقف بهم، ولا يسيرون مع النوايا السيئة التي تأخذهم إلى الوراء، إلى الشهوات إلى الدنيا إلى المال إلى النساء إلى الصور التي تؤخرهم إلى الغفلة والنسيان وترك الاستعداد للقاء

الله تعالى، التي تأخذهم إلى الانهماك في الدنيا والانشغال بها والسعي وراء أرزاقها التي قد قسمها الله تعالى، ولا مفر من إيصالها، وأنها واصلة إليهم على أي حال كانوا مؤمنين ..فاسقين ..كافرين.

نبدأ الآية؛ قال تعالى: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ ﴾ فسماهم أمة؛ لأنهم ليسوا كمثلهم، وكذلك في نفس الوقت هم أمة يعني: يقتدى بهم، فلما صاروا قدوة صاروا على أحسن الحال؛ لأن المرء لا يقتدي إلا بمن كان حاله أعظم الأحوال، يعني: كأن الله تعالى يقول: هؤلاء أصحاب أعظم حال يمكن أن يقتدى به، وأنهم متفردون في هذه الأحوال الحسنة، وهي مثل قوله:﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠] يعني: كان وحده عليه الصلاة والسلام وفي نفس الوقت كان أمة يجمع كل هذه الخيرات، وكان أمة يقتدي به الأنبياء فمن بعدهم، وكان أمة لا يشاركه في هذه الصفات أحد، وكان أمة يجمع صفات الأمة كلها في نفسه.

وهذا هو المحك والمعيار والاختبار الذي يختبر المؤمنون به أنفسهم؛ ليكونوا من هذه الأمة القانتة، فهذه الأمة القائمة التي ذكر الله تعالى إنما هي تشرف بأن تنتسب إلى أمة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه إذا قال:﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ﴾ فقد ذكر هذه الأمة المرحومة بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] فحالهم إذن أفضل من هذا الحال الذي ذكر الله تعالى عن تلك الأمة القائمة.

نستكمل:﴿ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ ﴾ يعني: تقوم في كل أزمان الليل، آناء: جمع آن، والآن يعني: الزمن، وقال: ﴿ قَآئِمَةٌ ﴾ حتى يقتدي الناس بقيامهم،ثم : ﴿ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ۝١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ وذلك سبب قيامهم وسبب تلاوتهم وسبب ذكرهم، فلما وصفهم سبحانه وتعالى بأنهم يقومون آناء الليل، ويتلون آياته وهم يسجدون بينت الآية أن هذه ليست الصورة الظاهرة فقط.

معنى ذلك: أن هذا المجموع الحسن الذي ليس لله غيرهم في الأرض يقومون له، ويأتم الناس بهم، ويقتدي الناس بسيرتهم؛ وأول ما يقتدى بهم فيه أنهم: ﴿ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ تتنزل على قلوبهم تلك المعاني تلك الأدوية التي تشفي هذه القلوب وتخرجها من أمراض الشهوات والشبهات، وتأخذ بها إلى الله تعالى، وتفتح بصيرة القلب وتنورها، وتفتح بصيرة العقل كذلك وتضيئها، وتبين لهم الطريق وتسهله إلى الله تعالى هذا الطريق الذي ظن أنه صعب إنما يسهل بتسهيل الله لهم، وعندما رأى منهم صدق أعمالهم وإخلاصهم لله تعالى سهل عليهم ذلك، كما قال: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ ﴾ [الليل: ٥-٧] فهو الذي يسر لهم ذلك كما قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقوله: ﴿ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ فقد صور السجود بالذات؛ لأنه أعظم قرباتهم إلى الله تعالى، لأنه ما يكون المرء أقرب إلى الله إلا وهو ساجد «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**» [1] هو العبد نفسه الذي يقرب من ربه، أو أقرب ما يكون الرب من عبده وهو ساجد، فهذه أقرب القربات التي يقترب بها الرب جل وعلا من عبده وهو ساجد، لذلك قال: ﴿ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

وقد قال القائل في نومهم:

وكيف تنام عين وهي قريرة ... ولم تدر في أي المنزلين تنزل

وانظر لهذا البيت واحفظه لله تعالى، لعله يفيدك يوما ما، وانظر إلى المرء **كيف ينام ويغط في النوم ليله ونهاره كأن ليس وراءه آخرة**، وكأنه أمِن أن يبيت، يعني: أن يؤخذ بياتًا كما ذكر الله تعالى يبات فلا يصبح ومع ذلك لا يهمه أن ينتقل في بياته أو في نومه على أي حال!

الملاحظ للآية الكريمة يرى أنه لا أثر للنوم فيها، كما قال تعالى :﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ والقيام يكون بالليل، فما بالك بالنهار الذي لا نوم فيه؟ فدل ذلك على أنه لا مكان عندهم في جهادهم وبذلهم للنوم والكسل والنساء والأولاد التي يسعى إليها الناس وهمهم أن يحصلوها قبل أن تفوتهم، وقبل أن تمر أزمانهم وأعمارهم، هؤلاء ليس عندهم حظ لهذا.

---

(٣) سبق تخريجه.

والنقطة المهمة في تلك الصورة والتي ينبغي أن يتحقق بها المؤمنون حال سيرهم الله تعالى هي: تراهم لما كانوا أمة قائمة آناء الليل يتلون آيات الله وهم يسجدون، تراهم جاءوا في نهارهم فناموا يومهم؟ وغفلوا ساعاتهم، وقصروا في أوامر ربهم وتكاسلوا عن القيام بحق الله تعالى؛ لأنهم قد قاموا له بالليل كما نفعل نحن؟ لا، **وانما المجاهدون حالهم النشاط الدائم والدأب الذي لا يفتر، والقلوب والأبدان التي لا تمل من الطاعة ولا تستكثرها ولا تهملها**، وفي نفس الوقت يرون أن ذلك كله فضل الله عليهم فلا يقولون: قد قمنا لك بالليل سنام إذن بالنهار! ونغفل ونتكاسل، لا.. بل شكره على هذا القيام أن يصبح صائما، بل شكره على هذه التلاوة وكثرة السجود بالليل أن يصبح ذاكرًا أن يصبح متصدقا أن يصبح يهمه أن يصلح ليله؛ لئلا يخسر ليلته القادمة؛ لأنه لو أصبح في يومه وقد قصر في ذلك اليوم، أصيبت الليلة التالية.

المجاهدون إذن ليسوا على هذا الحال ولكن: ﴿ **مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ** ﴿١١٣﴾ ﴾ فإذا كان حال ليلهم حسنًا فلا بد وأن يكون نهارهم حسنًا، مشتغلين فيه بالقيام بمصالح أنفسهم وبمصالح دينهم لا يقصرون في ذلك من شيء، مشتغلين فيه بذكرهم واستعدادهم، مشتغلين فيه بتزودهم الزاد الحسن الذي يحملهم إلى الله تعالى؛ **وهي الصورة التي ينبغي أن نرى بعضًا منا عليها**.

وذلك يشير إلى النقطة التالية وهي: أنهم إن كانوا على هذا لحال فلم يبق شيء لنهار سيئ ولا لليل سيئ ، بمعنى: **أنهم وإن اشتغلوا بالدنيا لتحصيلها فإن هذه الدنيا ما تعكر عليهم صفو قلوبهم ولا سير أفئدتهم إلى الله تعالى**، فتراهم حتى في شغلهم منشغلين كذلك بأوامر دينهم، محافظين على ذكرهم، خاشعين لله ربهم سبحانه وتعالى.

لأنه لا يمكن أن يكون حالهم حسنًا ثم إذا ما انصرفوا إلى الدنيا صار حالهم سيئًا، لا، إن الدنيا والانصراف إليها سبب الحال السيئ في الليل والنهار، فإذا كان حالهم بالليل والنهار حسنًا دل ذلك على أن انصرافهم إلى الدنيا الانصراف الحسن الذي لا يعطل ليلاً حسنًا ولا يمنع نهارًا حسنًا، وبالتالي فهم في معاشهم وفي سعيهم على أرزاقهم كذلك يتميزون بالخشوع وعدم الهلع، يتميزون بالذكر لله تعالى، يتميزون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله تعالى.

وهؤلاء المجاهدين ما كانوا منفصمين في شخصياتهم، يعني: أن لهم شخصية في أعمالهم، ولهم شخصية مع الله تعالى، لا، إن ما يربطهم بالله تعالى لا يتغير، إن ذكرهم لا يفتر عن الله تعالى حال شغلهم ودنياهم حال آخرتهم وإقبالهم، بل يزدادون لله تعالى؛ لذلك فهم في دنياهم على هذه الحال الحسن؛ لأنه لا يمكن أن يكافئهم الله تعالى بيوم سيئ وليلهم حسن، أو بليل سيئ ويومهم حسن لا، وإنما يكافئهم بأعظم الحسنات ليلهم ونهارهم سبحانه وتعالى .

والسؤال الآن: ما الذي حملهم على ذلك؟ قال: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ **ما حملهم على ذلك إلا لأن إيمان بالله غمر هذه القلوب**، ليس إيمانًا مترددًا متشككًا، ليس

إيمانًا يحمل المرء على الصلاة والعبادة حينا ثم يتراجع أحيانًا، أو إيمانًا يرى حلاوته شيئًا ما ثم يفقد هذه الحلاوة ويتقهقر إلى الغفلة والبعد وقسوة القلب وجفاف العين شيئًا، وإنما يؤمنون إيمانا جعلهم لا يفرطون في تلاوة كلام الله تعالى، وفي سجودهم آناء الليل.

فبينت الآية أن ما يميزهم ما يترتب على هذا القيام؛ فما قاموا آناء الليل، وما أتعبوا أنفسهم، وما تحملوا المشقة إلا لما وقر في هذه القلوب من الإيمان، فأصبح كل الذي يعتبره الناس مشقة وتعبًا، ويميلون للنوم والراحة، ويدعون الصلاة والقيام والعبادة، ويخلدون إلى المرأة والولد، ويخلدون إلى راحة جسمهم وشهواتهم ومنكحهم ومأكلهم ومشربهم، أصبح كل ذلك في محبة الله تعالى، فإذا بهم يجدون هذه اللذة وهذا السرور وهذا النعيم وهذه الحياة وهذه الطمأنينة وهذا السكون وتلك البركة وهذه الرحمة في قيامهم لله تعالى.

وإذا كان الله قد بين أن السبب الأول هو إيمانهم بالله تعالى؛ فقد بين كذلك السبب الثاني وهو **إيمانهم باليوم الآخر** التي دلت عليه الآية كما قال تعالى: ﴿ **يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ** ﴾... **وما أدراك ما اليوم الآخر؟**

اليوم الآخر هو الذي أطار النوم من قلوب المؤمنين ومن أعينهم؛ فهم يتميزون بخوفهم من آخرتهم وما دفعهم إلى ذلك بعد إيمانهم بالله ومحبتهم له إلا خوفهم من اليوم الآخر؛ فكان في الأولى الترغيب: الإيمان والمحبة والرضا والتوكل واليقين والطمأنينة، ثم جاء الترهيب وهو الإيمان باليوم الآخر، بداية من: استعدادهم إلى لقاء الله تعالى، إلى قبرهم وسؤالهم، إلى حشرهم ونشرهم، إلى الصراط والميزان والنار والأهوال والكرب

التي لا يستطيعها أحد؛ حتى يتمنى كل امرىء أن يذهب به ولو إلى النار حتى يذهب من هذا الكرب وذلك الهم العظيم.

ذلك الكرب العظيم وذلك الخوف المهول حملهم على أن يأتوا بهذه الأعمال في الدنيا ليأتوا آمنين يوم القيامة، وما يأمنون يوم القيامة إلا بأن يكونوا في الدنيا على أحسن السلام والرضا مع الله تعالى.

وقد يقول المرء: إن أعمالهم قد وقفت عند هذا الحد، يعني: عند قيامهم بالليل وتلاوتهم لآيات الله، وعند سجودهم للرب وإكثار الصلاة له جل وعلا حتى تتهيأ لهم تلك الأحوال المحبوبة لله تعالى التي يحب أهلها ويقربهم، والتي يهديهم ويأخذ بأيديهم وقلوبهم إليه، والتي يرفع بها ذكرهم ويعلي منزلتهم، ويضاعف ثوابهم وأجرهم ، فهل وقفت أعمالهم على ذلك؟ كلا، وإنما قد تميزوا بشيء آخر كما قال: ﴿ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ فهم ما يجدون خيرا يقوم به غيرهم إلا وشاركوهم فيه، إلا ونافسوهم وتسابقوا معهم، إلا وأسرعوا قبلهم إليه!

وقد رأينا مصداق ذلك في أعمال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ كيف كانوا يتسابقون عندما نزلت آيات الصدقة، كيف كان من لم يملك ما يتصدق به إذا به يحامل على ظهره؛ حتى يأتي بالصدقة: يجعل صاعًا لأهله وصاعًا يتصدق به[1]، وكيف يأتي أبي بكر بماله كله، وكيف يأتي عمر بنصف ماله [2]، و وكيف يأتي عثمان بكذا وكذا

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

حتى قال النبي: «**ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم**»[1] إلى آخر ما ذكرت كتب السير والحديث عنهم رضوان الله تبارك وتعالى عليهم.

كان ذلك دأب هؤلاء المجاهدين، فما يقفون عند حد وإنما يسارعون إلى الخيرات، يسارعون إلى العلم، يشيعون الجنائز، يصلون الأرحام، يواسون الفقراء، يتفقدون إخوانهم، يدعون إلى الله تعالى، يقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ينتظرون رحمة الله، لا يقصرون في ذلك من شيء؛ لذلك قال: ﴿ **يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

ثم ذكر عاقبتهم التي ينتظرها المؤمنون، والتي تدفع المؤمنين إلى أن يشاركوا هؤلاء في تلك الصفات أو في شيء منها كما قال: ﴿ **وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ** ﴾ [آل عمران: ١١٥] **ما يفعلوا من أي خير صغير أو كبير لن يُجحدوه أبدا**، بل على العكس، ينالون به عظيم الثواب وجزيل الأجر ﴿ **وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾** ﴾ [آل عمران: ١١٥].

---

(٣) رواه أخرجه أحمد (٥/٦٣ ، رقم ٢٠٦٤٩) ، والحاكم (٣/١١٠ ، رقم ٤٥٥٣) وقال : صحيح الإسناد . وأبو نعيم في الحلية (١/٥٩) ، ولفظه (عن عبد الرحمن بن سمرة - رضي الله عنهما - : قال : «جاء عثمانُ إلى النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- بألف دينار - قال الحسن بن واقع في موضع آخر من كتابي : في كُمِّه - حين جَهَّزَ جيشَ العُسْرَة ، فنثرها في حَجْره. قال عبد الرحمن : فرأيتُ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- يُقلِّبها في حَجره، ويقول: ما ضَرَّ عثمانَ ما عمل بعد اليوم - مرتين).

رابعًا: صورة أهل المجاهدة

بعد أن أشرنا إلى بعض المعاني في هذه الأية الجميلة، ننتقل الآن إلى السؤال التالي حتى يكتمل الموضوع وترتبط أطرافه وهو: إذا كنت قد تكلمت في المجاهدة فماذا تريد أن ترى على المؤمنين؟ ما هي المجاهدة التي تود وتحب أن ترى المؤمنين فيها؟ **ما هي الصورة التي تتخيلها وترسمها للمؤمنين حتى يكونوا على هذه الحال؟ ما هي مظاهر هؤلاء المجاهدين الذين تود لنفسك ولأهل الإيمان أن يكونوا عليها؟**

لأنه إذا عرفنا هذه المظاهر فلعلنا أن نأخذ في الطريق، ولعلنا أن نرجع إلى اجتباء الله لنا، ولعلنا أن نأخذ حذرنا لهذه الآخرة المقبلة إقبالا حثيثا على الناس، أو لعلنا نؤوب إلى الله ونرجع وتكون تلك الأوبة سببًا للإنابة والتوبة التي يحب الله تعالى للمؤمنين، وأنه سبحانه إن رآها عليهم أعانهم وقواهم سبحانه وتعالى، ولعلهم يستمعون هذا القول فيتبعون أحسنه؛ وحينئذ ينتظرون رحمة الله تعالى.

وسوف نشير إلى هذه المظاهر **والتي قد يفعلها المؤمنون اليوم ولكن لا يقومون بحقائقها وينسون في نفس الوقت تلك النوايا التي تحركهم فيها**، وينسون المحبة التي تحملهم إلى الله تعالى؛ فتكون أعمالهم على هذا الحال الروتيني -كما يقال- أو على حال العادات لا حال العبادات والمجاهدات.

وسنذكر في هذه الصورة الدرجة التي توافق ما نحن فيه من قلة الحيلة وضعف الهمة وضعف العزيمة، لن نذكر درجة أعلى من درجات المجاهدين مثل درجات

الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانوا في الدرجات العالية يتنافسون فيها ويسارعون في تحصيلها؛ فهذه الأحوال كما ذكر الله تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٣] وكما بين الواقع الذي هم فيه: بين أن هذه الدرجات درجات مختلفة متفاوتة حتى إن هذا التفاوت هو تفاوت مقاعدهم عند رسول الله يوم القيامة.

نبدأ الكلام إذن عن مظاهر أصحاب تلك الدرجة التي توافق ما نحن فيه، **أول مظاهر هؤلاء** أنهم يصبحون **أول ما يصبحون همهم هو: إقامة أوامره وترك نواهيه سبحانه وتعالى**؛ فيقوم أحدهم ملتزما بسنة النبي صلى الله عليه وسلم في أن يتوضأ لله تعالى بعد أن يقول ما ورد من أذكار الاسيقاظ؛ ليقوم لله تعالى قانتا، ثم يأخذ حظه مما وهب الله له من الصلاة، ومما فتح الله له، حتى إذا صلى ذلك الورد جلس يستغفر الله تعالى، كما قال: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧] وكأن مثل هؤلاء قد قضوا ليلهم في المعصية والتقصير؛ يحبون طول الليل حتى يتلذذون بإقبالهم على الله، ويتلذذون بنعيمهم وسرورهم وقرة أعينهم في قيامهم لله يتلون آياته ويتملقونه ويقبلون عليه.

ليسوا كالأنعام سرورهم في المأكل والمشرب والمنكح، أو نعيمهم ولذتهم في أن يحصلوا الزائل من الدنيا، حتى ضعفت أبدانهم وقلوبهم وضعفت هممهم وعزائمهم عن أن يقوموا لله تعالى؛ هم ليسوا كذلك؛ لأن الذي يدفعهم إلى ذلك هو محبة الله تعالى؛ يدفعهم إلى ذلك الشوق والحنين إلى الله تعالى، يدفعهم إلى ذلك الخوف والوجل أن يؤخذوا أو أن يبيتوا .

لقد قاموا إلى الله تعالى على هذا السرورلأن هذه الصلاة هي قرة أعينهم ونعيم أرواحهم وبهجة نفوسهم وسكون قلوبهم وحظهم من الآخرة ونعيمها؛ وذلك لأن بهجة الصلاة ولذتها ليست من نعيم الدنيا، وإنما هي من نعيم الآخرة من حصلها يوشك أن يحصل نعيم الآخرة، ومن لم يحصلها لم يحصل نعيم الدنيا، ولم يحصل بالتالي نعيم الآخرة، فإذا ما صلى ما كتب له ووقف متملقا داعيا ينتظر الثلث الأخير والتنزل الإلهي؛ حيث يقول الرب سبحانه وتعالى: «**هل من مستغفر فأغفر له، هل من تائب فأتوب عليه، هل من سائل فأعطيه حتى يطلع الفجر**»[1] وهو في ذلك كله يدعو ويطلب ويستغفر حتى يطلع الفجر.

فإن طلع الفجر وهو يقرأ فقد ذكر بعض أهل العلم في تفسير الآية: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٨] أنه هذا القرآن الذي يتلوه قبل أن يؤذن للفجر، الذي يتلوه في ليله فإذا ما واصله حتى يسمع قرآن الفجر وينتظر نزول الملائكة تحققت له هذه الآية من شهود الملائكة إياه وسماعهم لتلاوته، ورفعهم لأسئلته ودعائه لله جل وعلا، ولا يزال في هذه الرحمة حتى تشرق الشمس، لا يزال محاطا بهذه الملائكة تغشاه هذه الرحمات تتنزل عليه هذه البركات إلى أن يطلع الفجر.

---

(١) رواه مسلم (١٧٦/٢ ، رقم ١٨١٠)، ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ -صلى الله عليه وسلم-: « إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ).

وانظر إلى الحال التالي الذي ليس على مثل أحوالنا ولا معهودها، فحين أذان الفجر فإن المحبين المقبلين على الله تعالى الذين كان شغلهم الشاغل هو الإقبال عليه ومحبته، والقيام بخدمته، والمسارعة لمرضاته، والتفكر فيما يكون سبب رحمته إياهم، وسبب بركته لهم، وسبب تقديمهم على غيرهم، وسبب فتحه لهم سبحانه وتعالى إذا بهؤلاء المجاهدون ما أن يؤذن الفجر حتى يتطهروا طهورهم للصلاة حتى يقفوا بين يديه سبحانه ثم يسارعوا في المشي إلى الصلاة للوصول للصف الأول.

علموا أنه من سار إلى المسجد هو في صلاة كل خطوة يخطوها يرتفع بها درجة وتحط بها عنه خطيئة[1] كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، وهي مسألة كذلك تفوت أهل الإيمان وهم أنهم إذا ذهبوا إلى صلاتهم فلا بد أن يتأدبوا بآداب الصلاة، **من الخشوع حال السير إلى الله تعالى، ومن التدبر والتذكر لموقفهم بين يدي الله تعالى**، ومن طرحهم الدنيا وعلائقها خلفهم حتى يقفوا وقد تطهر ظاهرهم وتطهر باطنهم لله تعالى؛ لا ينشغلون عنه بشيء، قد علاهم الخوف والإشفاق ألا تقبل هذه الصلاة.

---

(١) رواه البخاري (٢/٧٤٦، رقم ٢٠١٣) ، ومسلم (٢/١٢٨ ، رقم ١٥٣٨)، ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: « صَلاَةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلاَتِهِ فِي بَيْتِهِ وَصَلاَتِهِ فِي سُوقِهِ بِضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لاَ يَنْهَزُهُ إِلاَّ الصَّلاَةُ لاَ يُرِيدُ إِلاَّ الصَّلاَةَ فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلاَّ رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلاَةِ مَا كَانَتِ الصَّلاَةُ هِيَ تَحْبِسُهُ وَالْمَلاَئِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ يَقُولُونَ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ »).

فإذا دخل مسجده وجدته واقفًا متطهرًا أحسن الطهارة، مصليًا أحسن السنة، مسابقًا أحسن المسابقة، يصلي ركعتيه فإذا ما صلاهما فهذا وقت من أعظم أوقات المجاهدة التي يدعو فيها الله تعالى، والتي يستقيم فيها القلب، والتي يقوى القلب فيها على العبادة، والتي يستمطر فيه رحمة الله تعالى أن يكون قابلا لصلاته موفقًا له سبحانه وتعالى للوقوف بين يديه.

فإذا ما جائت الصلاة فإذا به متوخيًا للصف الأول وراء الإمام؛ فإن له تأثيرًا عجيبًا في الصلاة خاصة في صلاة الفجر؛ حيث قال تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٨] وهذا القرآن الذي يقرأه الإمام إنما يشهده الله وملائكته سبحانه وتعالى؛ فيكون للواقفين حينئذ له عليهم تأثير عجيب في قلوبهم وقربهم إلى الله ومحبتهم لله تعالى.

وانظر إلى الأحوال السيئة التي نحن فيها : لا نرى من يسارع إلى صف أول ولا إلى صف أخير وكلهم يأتي متأخرًا على الصلاة، كلهم يأتي متأخرًا عن ربه، وأن يقوم بعد أن يؤذن المؤذن للصلاة ولا على باله أن يحصل شيئًا ، أو أن يجاهد نفسه عليه، أو أن يقبل لله تعالى به، فيأتي متأخرًا، ويأتي في الركعة الأخيرة، وقد فضل النوم على الوقوف بين يدي الله تعالى، يظن أن هذا النوم هو أهم له، وهو أصح لجسمه وبدنه أن يستغل وقته في النوم لكي يستطيع أن يقوم بأشغاله، ولا يتوكل على الله في أن تكون صلاته وذكره هما القوة والمدد الذي يمده بهما المولى سبحانه وتعالى إذا ما أقبل عليه.

فإذا ما وقف هذه الوقفة بين يديه **بدأ صلاة المجاهدين**، دعك من صلاة المحبين فما فوقها، **فهو في صلاة وفي جهاد**، قد أتم الصلاة بأركانها وحدودها وواجباتها ووضوئها، وأخذ يجاهد نفسه على الإقبال على ربه بقلبه وعقله ودفع الوساوس والخطرات الشيطانية، وينعم روحه ونفسه بتلاوة وتدبر آيات الله، ويقبل على ربه سبحانه وتعالى متملقا له، طالبا منه، محتاجا إليه، منكسرا بين يديه، فقيرا له، خائفا منه، راجيا فيه، منيبا إليه؛ فهو في صلاة وجهاد.

فإذا ما صلى هذه الصلاة التي قد تعلق فيها بربه أدى فيها آدابه قام فيها القيام الحسن، والخشوع والإقبال والتفكر والتدبر، إذا أداها على الخوف والخشية والرجاء، والإحسان والمراقبة لله تعالى، إذا أداها على المحبة له سبحانه وتعالى؛ **فإنه يفرغ من صلاته وقد تخففت أثقاله ومحيت ذنوبه** التي سبقت، كما قال صلى الله عليه وسلم: «الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما».[1]

إذا سلم من الصلاة حزن أشد الحزن لانتهاء وقوفه بين يدي ربه، **فهو لا يود أن يخرج من بين يدي الله تعالى، إلى أي شيء يخرج؟** إلى أي شيء ينطلق من بين يدي الله تعالى؟ أينطلق إلى خير من ربه؟ إلى خير من كلامه؟ إلى خير من مناجاته؟ إلى خير من دعائه؟ إلى خير من تملقه وسؤاله؟ إلى خير من لذته وقرة عينه وسروره؟ إلى خير من

---

(١) رواه أحمد (٢/٢٢٩ رقم ٧١٢٩) والحاكم (١/٢٠٧ ، رقم ٤١٢) وقال : صحيح على شرط مسلم. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٢٢٤): فيه رجل لم يسم . ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: الصلاة المكتوبة إلى الصلاة التي قبلها كفارة لما بينهما، والجمعة إلى الجمعة التي قبلها كفارة ما بينهما، والشهر إلى الشهر كفارة لما بينهما).

امتلاء قلبه من ربه: محبة ومعرفة وتوحيدا وإنابة وخوفا وخشية ورجاء، فظهرت عليه آثار هذه الصلاة التي صلى من الخشوع والنور والهداية والاستقامة والحفظ في طريقه يومه ذلك حتى يمسي.

كذلك نهته صلاته هذه عن الفحشاء والمنكر، ووجد في قلبه بغضًا للمعصية ومحبّة للطاعة وإقبالا على الله تعالى؛ فإذا به يجلس بعد صلاته يذكر الله تعالى حتى تشرق الشمس؛ حيث كان يجلس النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الله جل وعلا، ويقرأ آياته ويتلو قرآنه حتى إذا ارتفعت الشمس قدر رمح أو رمحين قام فصلى ركعتي الضحى، أو ذهب فصلاهما بعد ذلك، وهو يستمسك في ذلك كله بالعزيمة.

وأهل المجاهدة في هذا الوقت المشرف لا يتركون الذكر أبدًا، وهو وقت تقسيم الأرزاق عليهم، فهم يجاهدون أنفسهم على الإقبال على الله تعالى والاستيقاظ لذكره متوكلين على أن الله جل وعلا سيمدهم بمدده، ومتوكلين على أن الله سبحانه وتعالى سيقويهم على أشغالهم، ويقوي أبدانهم وقلوبهم على مصالحهم التي يخافون عليها إذا ما جلسوا ليذكروا ربهم سبحانه وتعالى.

وقد ذكرنا ما في الذكر من تلك الفوائد التي يكفي فيها أن يقال: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٢] ليس ناموا عني، وترنحوا هذا الترنح، واستبلدوا هذه البلادة التي تظهر على الناس بعد أن يصلوا الصبح، كل يستلم حائطًا أو عامودًا لينام، وكل كأنه قد قام الليل كله من التعب فإذا به يأتي وقت الذكر لينام فيه لا يذكر الله تعالى ويخفق رأسه فيه كأنه مسكين قد قطع ليله عبادة وتهجدًا

وذكرًا!! هذه الحال إذن لا مجاهدة فيها ولا يقين ولا توكل، فإذا ما تعكر عليهم بداية اليوم خف رزقهم؛ لأنه وقت تقسيم الأرزاق؛ فأين الرزق الذي يحصلونه من أرزاق الآخرة؟ أو أين الرزق الذي يحصلونه من أرزاق الدنيا؟

لقد زهدوا في هذا الرزق ودفعوه وناموا عنه وتكاسلوا عن تحصيله فبماذا ينتظرون من الله تعالى أن يهيئ لهم رزقا من أرزاقه الجميلة الحسنة في أحوال الآخرة، أو في أحوال الدنيا؟

أهل المجاهدة عندما تهل عليهم أنوارها لا يقصرون أبدًا في تلك الأحوال أن يقوموا لله تعالى ذكرًا وتلاوة وتدبرًا وإقبالاً وتواطؤًا للقلب مع اللسان على ذكر الرب سبحانه وتعالى، إذا ما أهلَّ عليهم الشيطان لينام يدفعون هذا الشيطان بمزيد الذكر لله تعالى حتى يخنس عنهم؛ لأن هذا الوقت من الأوقات التي للشيطان فيها جولة مع الإنسان، بمعنى: **أن النوم في غير الأوقات المعهودة إنما هو من الشيطان**، فإذا ما سلم المرء من صلاته ترك نفسه للشيطان لينام ويحرم نفسه ولا يقبل على ربه، ولا يكون في محل ذكر الله تعالى حتى يذكره الله تعالى في ملأ خير من ملأه، فتخف مجاهدته ولا يقوم لله كما أمره سبحانه وتعالى، وإذا به يقول: غدًا إن شاء الله تعالى؛ حتى إذا ما استيقظ في هذا الوقت المبارك ليذكر الله تعالى إذا به يحادث الناس، وإذا به ينشغل بهم، وإذا به يقدم محادثتهم وأنسه بهم على أن يقوم بذكر الله تعالى، وأن يجمع قلبه على الله تعالى، وأن ينتظر بذلك رزق الله تعالى، وأن يقوي قلبه، وأن يستمد مدده من الله سبحانه وتعالى؛ ليكون عونًا له على بقية يومه !

وفي هذه الأثناء يعلم مسألة جديدة يتعلمها المؤمنون وهي: **كيف يدعون الله تعالى في هذه الفترة من هذا الوقت الشريف؟ كيف يتملقون ربهم ويتململون بين يديه أن يحفظهم في يومهم، أن يكونوا في ضمان الله تعالى، أن يكونوا في خفارة الله سبحانه وتعالى ليحفظهم في ذلك اليوم؟** وأن يضمن عليهم سبحانه وتعالى أعمالهم وقلوبهم، وأبدانهم وأحوالهم، وأن يعينهم ويحفظهم، وأن يوفقهم ويسددهم، وأن يمنع عنهم موانع السوء والغفلة، وموارد الهلاك والردى والبعد عن الله تعالى؛ فإذا ما أصبحوا كان همهم أن يدعوا ربهم سبحانه وتعالى أن يكونوا محفوظين في هذا اليوم من أيامه سبحانه وتعالى.

فلا تقصر حينئذ أن يكون من وردك التململ والتملق لله تعالى؛ **لأنه إذا لم يحفظك في يومك تشتت عليك يومك، ووقعت في الغفلة، وصرت إلى البعد والتفريط والتقصير**، إذا لم يعنك على الصلاة وجدت نفسك مفرطًا فيها متقللاً منها لا تجد فيها قلبًا ولا تجد فيها روحًا، إذا لم يحفظك سبحانه وتعالى وإذا لم يعنك ولم يوفقك جل وعلا في يومك هذا انفرط عقدك في أعمال الدنيا وأعمال الآخرة، ثم جاء ليلك الليل الحزين الذي نراه في لياليا وأيامنا التي تنقضي بغير ما يقرب إلى الله تعالى.

إذن قد حافظت على هذه الحال: دعاء وابتهالاً إلى الله تعالى وخوفًا من أن يكون يومك يوم سوء كبقية أيامك تدعوه وتطلب منه، وترفع إليه أكف الضراعة سبحانه وتعالى بقلب حزين خائف وجل أن يضيع هذا اليوم.

إذا صلحت هذه الأحوال يوشك أن يكون يومه يومًا من أيام العبادة، من أيام الذكر، من أيام حلاوة الإيمان والإحساس بطاعة الله تعالى.

انظر إليك وجاهد نفسك على تصحيح هذه الأحوال، واعلم أن يقينك وتوكلك على الله فيها يقلب لك هذا الميزان الذي تميل إليه، وماذا يجري لك أيها المسكين إذا لم تنم يوما أو يومين؟ وتقضي هذين اليومين في ذكر الله تعالى؟ **ماذا يحدث لك أيها الشاب إذا قمت لله تعالى متفكرًا متدبرًا ذاكرًا مجاهدًا؟**

انظر إلى هؤلاء الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الذاريات: ١٧] ولم يقل: كانوا قليلا من الليل ما ينامون، لا وإنما الهجوع فقط يعني: أن تخفق أعينهم ثم ينتفضون مرة أخرى إلى الصلاة، كان ذلك قليلا في ليلهم، ثم كانوا في نهارهم مجاهدين لله تعالى، باذلين أنفسهم وأموالهم ووقتهم وجهدهم مسارعين إلى الجنة كما قال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١١١].

نستكمل حال هؤلاء المجاهدين: صلى ضحاه ثم ذهب إلى شغله، وقد تزود الزاد الذي يسير به يومه، وقد انشغل بذكر الله يود أن يحفظه الله تعالى، لا يغفل لسانه عن الذكر ولا قلبه عن التعلق بالله تعالى، فهم حال أشغالهم لا يفترون ولا يتوانون عن الذكر، مقيدون بأوامر الشرع حال شغلهم وعملهم وحال دينهم وعبادتهم؛ حيث وضعهم الله تعالى وضعوا أنفسهم؛ حيث أمرهم ائتمروا؛ حيث نهاهم انتهوا، كل همهم في هذه الدنيا أن يروا مواقع الرضا لله تعالى ليسيروا فيها، وأن يتحسسوا مواضع محبة الرب ليحققوها، أن يبصروا مواضع النور والسير إلى الله تعالى؛ ليجاهدوا في الثبات عليها والسير عليها، تاركين كل نزواتهم وشهواتهم وراء ظهورهم خارجين عن الغفلة مستعدين للقاء الله مشتاقين لهذا اللقاء.

ثم هو مشغول طوال يومه بأمرين لا ينفك عنهما أولئك المجاهدون لله تعالى أبدًا:

الأول: القيام بحق الدين.

والثاني: القيام بحق عباد الله تعالى.

فالأول: وهو **حق الدين** الذي ذكرنا في قوله تعالى: ﴿ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤] هو مشغول بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعلم العلم النافع والعمل الصالح، والدعوة إلى الله تعالى، وأن يرفع عن الأمة هذا البلاء النازل وهذا الجهد والمشقة التي أحاطت بالمؤمنين.

والثاني: **أنهم لا يقصرون في حق عباده**؛ فهو بين أن يعود مريضًا، أو أن يشيع جنازة، أو أن يواسي فقيرًا، أو أن يشارك في فرحهم، أو أن يقاسمهم أتراحهم، أو أن يقضي لهم مصالحهم، أو أن يقوم لهم بحاجاتهم كل ذلك وهو مستبشر النفس فرحًا أن الله تعالى قد ساق له هذه الأعمال من أعمال الإيمان لا يقصر فيها؛ فوجدته مشغولاً بأن يقوم لأهل الإيمان بتلك الأعمال التي تقربه إلى الله تعالى، تلك الأعمال المتعدية التي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم: «من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن نفس عن مؤمن، ومن ستر على مؤمن..»[1]، ومن أطعم

---

(١) رواه البخاري (٢٣١٠) ومسلم (٦٧٤٣). ولفظه (عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

جائعًا، ومن سعى معه بشدة ساقيه، ومن رفع له بشدة ساعديه، ومن أعان أخاه ومن صنع إلى آخر ذلك لا يتململ من أن يقوم به، ولا يقصر في أن يسارع إليه.

فإذا جاء وقت الظهر وجدته قد سارع إلى فرج الله تعالى له بالصلاة، وإلى نعيم روحه ولذته، سارغ إلى سرور قلبه وبهجته، ووقوفه بين يدي الله تعالى لا يقول: بعد هذا العمل سأذهب إلى الصلاة، ننتهي من هذه الشغلة ونذهب سريعًا إلى الصلاة، حتى يضيع عليه الصف الأول، أو تضيع عليه ركعات من صلاته؛ بل يقوم فيتطهر فيحسن الطهور، ثم يسعى وعليه السكينة والوقار إلى بيت الله تعالى، ثم يصلي ما شاء الله له كل خطوة يرتفع بها درجة، وتحط بها عنه خطيئة ينتظر الصلاة فهو في صلاة والملائكة تدعو له: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، ما لم يحدث [1].

ثم بعد ذلك **لا يفرط في سننه أبدًا، لا يتركها حضرًا ولا سفرًا، وإن فاتت قضاها،** كل ما تعلق به بالله تعالى لا يفرط فيه ولا يقصر عنه ولا بد له أن يقضيه إذا فاته.

ثم بعد ذلك هو مهموم محزون مغموم إذا انتهت هذه الصلاة، إذا ابتعد عن ذكر الله، إذا قطعه قاطع عن الله جل وعلا إنما قلبه مرتبط بالله تعالى، فقلبه معلق بالمساجد وهو حديث نسمعه ولا قيمة لهذا السماع، ولكن هؤلاء قلوبهم معلقة بالمساجد حتى يعودوا إلى بيوت الله تعالى.

فإذا ما صلى هذه الصلاة على ما فيها من الإحسان والنصيحة والصدق والإخلاص والمراقبة والحزن على أنه لم يؤد حق الله تعالى الحق المطلوب سلم، انشغل

---

(١) سبق تخريجه.

بأذكاره بعد ذلك، فهو لا يفوته في وقتٍ ذكر، لا يفوته في وقتٍ تعلق بالله، لا يفوته دعاء، لا يفوته تلاوة للقرآن، كل أوقاته هذا المجاهد إنما هي لله حتى وإن كانت أعمالا للدنيا حولها بالنية الصالحة إلى أعمال يرجو ثوابها عند الله تعالى.

فإذا ما صلى العصر جاء وقت أذكار مسائه، وهو الوقت الذي لم يكن أحد من السلف ليفرط فيه أبدًا، أن يجلس ليذكر الله تعالى حتى تغرب الشمس، **يذكره ويدعوه ويتملقه ويحاسب نفسه على ما قدم وأخر في يومه**، فيختم يومه بخاتمة الإيمان، وخاتمة الذكر، وخاتمة رفع الأعمال إلى الله تبارك وتعالى، دليل التعلق بالله والمحبة له، دليل الانشغال به وإقبال القلب عليه وعكوفه على ربه سبحانه وتعالى، إن عرض له عارض الولد أو المال أو النساء أو الشغل أو الائتناس بغير الله تعالى أو الخلق أو ما يعرض له من عوارض الشيطان؛ فإنه حينئذ يقطع هذه العوارض ولا يقف لها، ولا يستسلم للسير معها محاولا أو قائلا: سأقول أذكار المساء بعد المغرب، أو قد تأخرت وانشغلت بفلان وفلان، سوف أحاول أن أجلس بعد العشاء لأقول هذه الأذكار ، إن شاء الله لن أفرط فيها؛ فتضيع عليه هذه الأذكار ويأتي وقت آخر له ذكر آخر وعمل آخر فلا يجد له وقتا، ولا يجد له قلبا، ولا يجد له إقبالا على الله تعالى !

فإذا ما كان حريصًا على الذكر في أول اليوم، كانوا أشد حرصًا عليه في نهاية اليوم **حتى يقوم بما يكون سببًا لأن يختم الله تعالى له بخاتمة السعادة**، فإن هو بقي في هذه الحياة الدنيا، فهي إذن ليلة جديدة تملأ بالعبادة والطاعة، وإن هو قد أُخذ إلى الله فقد ختم له بأعظم الخاتمة وأحسنها وأفضلها.

إذا انشغل المرء بالدنيا وانشغل بهذه التوافه التي يشغل بها نفسه، ويشغله بها شيطانه فإذا به في نهاية يومه لم يحصل شيئًا: لا وقتا قد حفظ، ولا ذكرًا قد عمل، ولا طاعة قد قدم، ولا شيئًا في أمور الآخرة فعل، ولا شيئًا في أمور الدنيا ومعاشها قد قام به، لئن حاسب نفسه في نهاية يومه إذا به لم يحصل شيئًا!

فليحافظ المرء إذن على ذكره، لأن هذه علامة من علامات المحبة، والمجاهدة التي ينتظر بها المرء فرج الله تعالى، وحفظ وقته، وحفظ قلبه، وينتظر بها أن يعينه ربه على ليلته، وأن يقيمه فيها، وينتظر بمزيد المجاهدة مزيد الرحمة والزيادة من الله تعالى، ومزيد الاستقامة، ومزيد الهدى، ومزيد التوفيق ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فإذا ما قام بذلك وانتهت أذكاره على المغرب فإذا به يوفر الوقت بين المغرب والعشاء، فإنه قد جاء في تفسير قوله: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [السجدة: ١٦] أن ذلك يكون بالصلاة ما بين المغرب والعشاء، **وهذا الوقت من أوقات الغفلة التي ينبغي أن يستغلها المرء**؛ عندما يغفل الناس عن ذكر الله تعالى ومحبته، فالمحبون لا يغفلون، لذلك ينبغي لأهل الإيمان أن يقوموا فيه بتلك العبادة ولو مرة أو مرتين في عمرهم، ليحصلوا هذه الحال الحسن.

ماذا يفعل بعد ذلك؟ صلى العشاء وإذا به إما أن ينام، وإما أن يوتر قبل أن ينام؛ وهذه من مكائد الشيطان، فهو ينيم الناس بعد العشاء، يقول: نم مبكرًا، وإن شاء الله تستيقظ لتصلي بالليل كما كان يفعل الأبرار والصالحون؛ فينام إلى الفجر!

فيأتي في الليلة الثانية وهو يعلم يقينا أن الشيطان قد ضحك عليه في الليلة الأولى، وأن الشيطان إن قال له: نم؛ فسينام ولن يستيقظ، ومع ذلك يقول: لا إن شاء الله سأستيقظ! وإن كان ينبغي: ألا يلدغ المؤمن من جحر مرتين [1]، ولكن اليوم لا بد أن يلدغ ألف مرة!

إذا علمت ذلك من أول ليلة، فلتسمسك ولتحزم أمرك، وتصلي عشاءك ثم تقوم فتصف رجليك لله تعالى مصليًا، لا تقصر فيها؛ جربت نفسك في ذلك يومًا ويومين وثلاثة إذا بك قد حلت عليك الرحمة، ونزلت عليك البركة، وقوي قلبك على مكافحة الشيطان، وعلم الشيطان أنه لا سبيل له عليك في هذه الحال حينئذ.

وخذ من ذلك كذلك أمورًا كثيرة: أنت قد وظفت على نفسك أيها المحب ثلاث عشرة ركعة تصليها لله تعالى؛ يأتيك الشيطان يقول: أنت متعب اليوم صل ستة ركعات، غدًا يأتيك ويقول: أنت متعب صل ستة ونم وإن شاء الله تقوم فتصلي بقية الركعات؛ فلا ستة صليت ولا غيرها صليت؛ وضاعت ليلتك كما تضيع بقية الليالي!

والكل يعلم ذلك من نفسه، والكل يترك نفسه للشيطان، والكل يترك نفسه للهوى، ويخشى أن يبذل لله هذا الوقت وهذا الجهد **ويخاف إن بذل شيئًا من ذلك أن يحدث له شيء**، أو أن يقع في شيء، أو أن تكون له هذه الأحوال السيئة التي يحذر منها ويخاف أن يقع فيها.

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٢٧١، رقم ٥٧٨٢)، ومسلم (٤/٢٢٩٥، رقم ٢٩٩٨)، ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ).

حالك إذن: **صلِّ ما شئت لله تعالى، ثم إن استوثقت أن تقوم من الليل أخر الوتر وإلا أوْتَر ثم نَم**، كما ذكر أبو هريرة رضي الله عنه: أوصاني خليلي بأن أوتر قبل أن أنام [1].

والنقطة المهمة أن يكون قيامك شكرًا لله تعالى على أن أقامك وأنام غيرك، على أن قربك وطرد غيرك وأبعده، على أن اصطفاك واجتباك لأن تقوم لله تعالى؛ فتكون صلاتك شكرًا، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[2].

إذا صلى هذه الصلوات ظهر عليه شيء من آثارها، وأول هذه الآثار أن يظهر لهم هذا الحال الحسن، وهو **التجافي عن دار الغرور والميل إلى دار الخلود، وأن يظهر عليهم قلة الحرص والتكالب على الدنيا، وأن تكون صلاتهم تلك تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر**، فإذا ما تجافوا عن دار الغرور، ومالوا إلى دار الخلود وقل تكالبهم على الدنيا وميلهم إليها، صار ذكرهم لله تعالى أحب شيء عندهم، وصاروا محزونين مهمومين إذا قصروا في ذكرهم لله تعالى؛ ينتظرون الصلاة القادمة وهم مشتاقون إليها محبين لها، وجدتهم يقومون بالعلم النافع الذي يقربهم إلى ربهم حق القيامه ، وجدتهم وقد ظهرت عليهم آثار طلاب الآخرة.

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٢٧١ ، رقم ٥٧٨٢) ، ومسلم (٤/٢٢٩٥ ، رقم ٢٩٩٨) ، ولفظه (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أوصاني خليلي صلى الله عليه و سلم بثلاث (صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام).

(٢) سبق تخريجه.

خامسًا: لا تتزحزح حتى يفتح لك

فبعد الكلام عن المجاهدة، قد يقول القائل: إن المؤمنين اليوم قد عوقتهم الدنيا وشهواتها أو أشغالهم وأعمالهم وأولادهم، ولم يسعفهم البذل للتحقق بهذه الأحوال، فإذا هم مهمومون مغمومون لما لم يوفقوا إليه من تلك المجاهدة.

إنهم عندما سمعوا قوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج: ٧٨] فلم يجاهدوا الجهاد الحسن الجهاد الذي لا شائبة فيه من تقصير؛ حزنوا على أنفسهم؛ إذ لم يكونوا أهلا لفتح الله جل وعلا.

قد أوقعه الشيطان في المعصية، وأنامه عن ورده، وأبعده عن صيامه، وقصر في صلواته، وأخرجه عن خشوعه وخضوعه لله تعالى؛ ومع ذلك هو مصمم أن يكافح هذا الذي أوقعه، وأن يجاهد هذا الذي كان السبب في أن يقصر هذا التقصير وما يزال يحاول، و يجاهد، وما يزال يتعثر، ويقوم ويهرول؛ حتى ينظر إليه ربه، فيراه محبا له، مقبلا عليه لا يتزحزح، كل همه أن يصل إلى ربه، كل همه أن يرضى عنه محبوبه سبحانه وتعالى، كل همه أن يفوز بلقاء الله، كل همه أن يحقق هذا الشوق لرؤية الله، كل همه أن يصل إلى الله تعالى مهما كانت المحن التي أحاطت به، والنوازل التي نزلت على رأسه وبدنه، أو على ماله ونفسه، أو على ولده وصحته، أو على جاهه وسلطانه، كل ذلك لا يساوي عنده شيئًا في سبيل الوصول إلى الله تعالى.

إنهم إذا ما ساروا في طريق الله وأخذوا يجاهدون أنفسهم فإنهم كهذا الرجل الذي يريد الوصول إلى الملك ويبذل جهده ووقته ليحصل هذا الشرف العظيم، ثم هو

في طريقه يصطدم بعقبات كثيرة: يقع مرة ويقوم مرة، ويمرض مرة وتضعف همته مرة، وتكاد عزيمته أن تفشل مرة ويخفق في أمره مرة، ولكنه ما زال مصمما على أن يصل إلى الملك مهما كلفه ذلك من مشقة، إما أن يصل أو أن يقتل دون ذلك.

فإذا ما سار المرء هذا السير وأخذ كما يقال: يلطش يمينًا وشمالاً، **ولكنه مصمم على أن يصل إلى الملك؛ يقع ويتعثر ويرجع ويتقهقر وعينه على باب الملك لا تتزحزح**، وهو سائر إليه، إذا بالملك يطلع عليه؛ فيرى فيه هذه المحبة، ويرى فيه هذا البذل، ويرى فيه هذا الشوق، ويرى فيه هذه الاستقامة على الطريق وتحمل تكاليفها **فإذا بربه جل وعلا يرسل إليه من يأتي به معززًا مكرما، إذا به سبحانه قد حمله إليه**.

وهذا الحمل من الله تعالى لهذا المسكين قد خفف عنه أعباءه وأراحه من عناء هذه التكلفة، وصارت نفسه منقادة له طيعة، وصارت أمور الإيمان والطاعة تأتيه عفوًا، وصار موفقًا، ومحفوظًا، تحوطه رحمة الله تعالى، وتتنزل عليه عنايته، وتتنزل عليه ملائكته، وكذلك تتنزل عليه رحمته وبركته سبحانه وتعالى، فإذا به هذا الشخص الجديد المحب لله تعالى تبدل سلوكه في الظاهر والباطن، وإذا بعناية الله تعالى لا تتركه؛ لأنه كما قال المولى جل وعلا: ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾ [مريم: ٥٨] وصل إلى تلك الحالة العالية: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾.

فلعل الله تعالى إن اطلع على هذه النية الحسنة ، وذلك الحزن على فوت الحظ من الله تعالى؛ فيفتح لهم سبحانه وتعالى، ويقويهم ويمدهم بمدده، وإذا فعل بهم ذلك حفظهم من الدنيا وآفاتها، وأقامهم على طريقه سبحانه وتعالى لا يتزحزحون، وأمدهم

بمدده، وفتح عليهم بابا من أبواب محبته التي إن فتحت لأحد فإنه لن يرجع أبدًا عن طريق الله تعالى.

وذلك لأن المحب لله تعالى لا يقصر مهما كانت الظروف، فلو قُطع قطعا، لا يقصر في طريق ربه؛ لأن المحبة قد ملأت قلبه وجوانحه بما لا يستطيع أن يدفعه، بما لا يمكن إلا أن يقدم فيه أسباب المحبة، وأن يضحي فيه تضحية المحبة، وأن يتحمل فيه مشاق هذه المحبة، **وكل ذلك ليس تضحية ولا مشاق ولا شيء، وإنما كل ذلك محض فضل الله تعالى واصطفاء المولى سبحانه وتعالى لمن وفقه لذلك**، وكل ذلك لذة المرء ونعيمه وحياة روحه وبهجة قلبه ولذة نفسه، لا سرور له ولا قرة عين ولا طمأنينة إلا أن يكون كذلك، فإن كان على غير ذلك فقد اطمأن بالدنيا الزائلة وركن إليها، أو أحبها وشهواتها وسرعان ما تنقضي هذه الدنيا، وسرعان ما تفنى، فإذا به قد تعلق بالسراب.

قد علمنا هذا المعنى إذن واستمسك المؤمنون بهذه النوايا، وعلموا أنهم كلما قصرت بهم أنفسهم وبطأ بهم عملهم وسيرهم إلى الله تعالى، وأخذتهم الظنون يمينًا وشمالًا، وسيطرت عليهم الوساوس والشهوات والنزوات، كلما حاول أن يميل بهم الشيطان والنفس والهوى، **إذا بهم يتذكرون عظمة الله تعالى في اجتبائهم وهدايتهم وحفظهم**؛ فيبذلون مرة أخرى ويقاومون مرة أخرى، ويكافحون مرة أخرى لا يتوانون حتى يحملوا إلى الله تعالى معززين مكرمين.

الفصل الثالث:

الاســـتبدال

الفصل الثالث: الاستبدال

بعدما قطعنا شوطًا في ذكر المجاهدة وما يترتب عليها وما يتعلق بها وجزائها وعاقبتها مما ينبغي أن يكون قد حمل أهل الإيمان على أن ينتهزوا فرصة هذه الأعمار القليلة في الدنيا؛ حتى يحصلوا بها سعادة الأبد من ناحية، ومن ناحية أخرى حتى يحصلوا بها الدنيا التي انشغلوا بها والتي كانت سبب شغلهم عن الله تعالى.

أما وقد عاهد المؤمنون أنفسهم على ذلك ولم يوفوا أو قد وفوا والله أعلم بوفائهم؛ فقد وصلنا إلى الكلام على الاستبدال.

وهذه القضية لها ارتباطات كثيرة مع رمضان، بمعنى: أن الله تبارك وتعالى قد زاد المؤمنين رحمة وبركة، وفتح عليهم من أبواب فضله ونعمه سبحانه وتعالى؛ حتى يستكملوا المجاهدة ويحصلوا جائزة الرب سبحانه وتعالى، وإلا فقد عرضوا أنفسهم لما يستوجب الاستبدال من الله تعالى؛ لقد قطع أعذارهم سبحانه وتعالى في هذا الشهر وقواهم وصفد الشياطين عنهم ورحمهم وأنزل عليهم مغفرته سبحانه وتعالى، وأخذ بأيديهم وقلوبهم إليه، وفتح لهم أبواب الوصول إلى الله تعالى وإذا بهم كما هم على حالهم: حال المقصرين المتكاسلين عن الله تعالى، المؤثرين لدنياهم وراحتهم على تحصيل القرب من الله تعالى والمحبة لله سبحانه وتعالى، أو تحصيل المغفرة والعتق من النار، كأنهم يفضلون الحرمان، وأن يستبدل بهم غيرهم !

ومن ثَم كان رمضان هذا من أشد الأيام صعوبة لعلم المرء بما هو فيه حال الذي ينبغي يغيره بحزم وجد؛ لأن النبي ذلك صلى الله عليه وسلم قد أكد على ذلك المعنى

فقال: «خاب وخسر من أتى عليه رمضان فلم يغفر له»[1] فما بالك وقد أتى عليه رمضان، وقد أتته الزواجر والقوارع والمواعظ والذكر حتى يفيق مما هو فيه، وأن يسارع إلى ما ينبغي أن يكون عليه، ومع ذلك هو على هذا الحال! ماذا ينتظر إذن من الله تعالى؟

أولاً: ليس بين الله وبين أحد قرابة

نشير إلى شيء من الآيات الكريمات التي بينت قضية الاستبدال؛ نبدأ بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩] هذه الأولى.

والثانية: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿١٧﴾ ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

والثالثة قوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُمۡ ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد: ٣٨].

---

(١) رواه الطبراني (١٩/١٤٤، رقم ٣١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٢١٥، رقم ١٥٧٢) و البزار (٤/٢٤٠، رقم ١٤٠٥) والحاكم (٤/١٧٠، رقم ٧٢٥٦)، وقال: صحيح الإسناد. ولفظه (أتاني جبريل فقال: رَغِمَ أنف رجل أدرك رمضان فلم يغفر له فأدخله الله النار قل آمين، فقلت آمين، ورغم أنف رجل ذُكِرْتَ عنده فلم يُصَلِّ عليك، قل آمين فقلت: آمين، ورغم أنف رجل أدرك أبويه أحدهما أو كلاهما عنده الكبرَ فلم يُدْخِلاَه الجنة، قل آمين فقلت: آمين).

الناظر في هذه الآيات جملة أولاً يرى شيئًا من المعاني التي ينبغي أن يقف عندها؛ أول هذه المعاني، وهو من سنن الله تعالى التي لا تتخلف في عباده وكونه، **أنه ليس بين الله تبارك وتعالى وبين أحد نسب، وأن الله تعالى ليس هناك عزيز عليه** ولا يظن أحد أن له شيئًا عند الله أو جاهًا يمكن أن يؤخر العذاب عنه، أو يكون سببًا في أن يمد الله تعالى له في أجله، وأنه سيهديه، وسيقويه، وأن الله تعالى لن يفعل به ما فعل بغيره من غير أن يعمل! لا، وإنما «**ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**» [1]، لم يسرع به شيء من الدنيا.

إذا ما فرطوا وقصروا أخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ لا تظن أن لك عند الله تعالى رجاء، أو جاهًا، أو أن لك عند الله تعالى بينك وبينه شيء يمكن أن يؤخر عنك العذاب، أو أن ينزل عليك الرحمة، أو أن بينك وبينه ما يمكن أن تنتظر به أن ينزل عليك مغفرته ورضوانه، وأن يقوي قلبك فتسلك طريقه لا، ليس بينك وبين الله ذلك: ﴿ **وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ** ﴾ [إبراهيم: ٢٠].

وانظر أيها المتأمل الفاحص إلى تاريخ هذه الأمة لترى هذا القول، أو ترى مصداق هذا الكلام **وهو أنه في عز مجد أهل الإيمان وتوافر العلماء والمجاهدين، وتوافر أهل الفضل إذا بهم لما قصروا سقطت دولهم، واستباح الأعداء أرضهم وديارهم وأعراضهم**

---

(١) رواه مسلم (٨/٧١ رقم ٧٠٢٨) . ولفظه (عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: « مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ).

وهدموا منازلهم ومساجدهم وفعلوا فيهم ما لا يمكن إلا أن يقول المرء ساعتها: أليس هؤلاء أولياءك يا رب؟ ما الذي تفعل بهم؟ لماذا ينزل بهم كل ذلك؟ ونحن لسنا على شأنهم في شيء: لا في علم كنا أو نكون، ولا في جهاد ولا في بذل، ولا في عبادة وسلوك إلى الله تعالى، ولا في شيء يمكن أن نقيس أنفسنا بهم في أحوالهم الحسنة التي لم تشفع لهم عندما قصروا وفرطوا في أمر الله تعالى، إذا بهم ينزل بهم ما سمعتم به ، ولولا بقية من إيمان، ولولا موعظة من الله تعالى، ولولا تذكير يوصله الله جل وعلا لأهل الإيمان لنزل بهم ما نزل بغيرهم، وهم في حالات سيئة إذا استوجبت من الله لا تستوجب إلا عذابه ومقته ونقمته، هؤلاء المتكاسلون عن الله تعالى ماذا ينتظرون؟

انظر إلى هذا الحال إذن، وانظر إلى موضع العبرة فيه: **من نكون نحن في أهل هذه القرون الجميلة التي كانت في عهود الإسلام الأولى مما كانوا عليه من التقى والدين والبذل والقرب من عهد الرسالة** وأصابهم ما أصابهم في العراق على يد المغول وفي ما وراء النهر وفي أسبانيا وهنا وهناك، وانظر إلى ما حل بهم من هذه النكبات وهذه المصائب والآفات مع توافر ذلك كله مما ذكرنا، فهل مع تناقص ما نحن فيه والتكاسل الذي وصلنا إليه وقلة الدين والعلم والبذل مع البخل والحرص والشح بالوقت والجهد والمال أن ينفق لله تعالى ننتظر أن يكون بيننا وبين الله تعالى هذا العمار الذي يقوله العوام؛ حتى يكون سببا لأن يرفع الله تعالى البلاء، أو أن يؤخر تلك النوازل هذه أوهامنا التي نعيش فيها.

ثانيًا : تفسير آيات الاستبدال

والمعاني في الآيات كثيرة ونود أن نشير إلى أهمها، وإن كانت كلها مهمة ينبغي الاعتبار بها بعد النظر والتأمل لها؛ حتى تكون نبراسًا ومصباحًا يضيء للمؤمنين مرة

أخرى طريقهم خاصة في هذه الأيام من أيام رمضان التي يمكن أن تقوى فيها قلوبهم وأبدانهم على السير إلى الله، فإذا ما أخلصوا لله تعالى وصدقوا العزم على مواصلة السير إليه سبحانه وتعالى، ونفضوا عن أنفسهم الكسل والتقصير والتفريط، ورجوا الآخرة وسعوا لها، وتركوا ما هم فيه من التبلد والقساوة التي مالت بهم إلى الدنيا، وأخلدت بهم إلى الأرض فلعلهم أن يحصلوا شيئًا من رحمته وهو الرحيم الودود جل وعلا.

من تلك المعاني هذا المعنى الذي ينبغي أن نأخذه بجد وحذر، وأن يكون المؤمنون مترقبين له خائفين من نزوله، كما ذكر الله تبارك وتعالى:﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٧-١٠١].

و مما تطالعنا به الآيات من المعاني المجملة أيضا أنها تشير إلى أن هؤلاء الخلق كلهم فقراء إلى الله تعالى، كلهم مساكين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ﴿ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر: ١٥] الآية الثانية:﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ ﴾ [محمد: ٣٨] فهذه الآية الثانية تدل على أن هؤلاء الفقراء التعساء الذين لا يملكون شيئًا في الدنيا ولا في الآخرة يتكاسلون عن ربهم، ويحبون الفقر وما هم فيه من قلة الدين والبعد عن رب العالمين على الغنى بالله تعالى وعلى طاعته سبحانه وتعالى وعلى الإقبال عليه وعلى محبته وعلى التقرب

إليه، يختارون الفقر في دينهم وأعمالهم وطاعاتهم وعباداتهم وقيمهم على أن يكونوا أغنياء بالله، أقوياء به سبحانه وتعالى مددهم من الله، نصرتهم من الله، عونهم من الله، توفيقهم من الله، حفظهم من الله، تسديدهم من الله تعالى.

تراهم يفهمون؟ تراهم يعقلون؟ انظر إلى قول الله تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [القصص: ٦١] قبل ذلك يقول المولى:﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص: ٦٠-٦١] ذلك المتاع القليل الفاني الضئيل الزائل ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [القصص: ٦١].

هذا هو **المعنى الثاني** الذي تشير إليه الآيات **معنى الفقر:** ترى هؤلاء الفقراء التعساء الذين يحبون الفقر في أحوالهم وقلوبهم وأبدانهم، الذين يحبون الفقر في أعمالهم وطاعاتهم، الذين يحبون الفقر في بعدهم وجفائهم لربهم، الذين يحبون أن يكونوا في الدرجة الدنيا القليلة في معرفتهم بربهم على أن يكونوا مع الله تعالى في الدرجة الحسنة والمنزلة العالية، ويؤثرون هذا الزائل الفاني كما قال: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

هل هؤلاء الفقراء إذن يجزون الله تعالى في شيء؟ كلهم فقراء ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾ لو منع عنكم الرزق صرتم سائلين متسولين تأكلون بعضكم بعضًا، إن منع منكم الماء وجدتم أنفسكم على هذا الحال السيء، إن منع منكم شيئًا من صحة أو ولد رأيتم أنفسكم على أسوأ الأحوال وأنكد المعايش، لو منع عنكم وجدت

الطوابير الطويلة التي تدل على الفقر والمسكنة، وتدل على البعد عن الله تعالى، وعلى الوقوع فيما حرم الله، وتدل على الغفلة، وتدل على أنهم لم يستغنوا بربهم، بل افتقروا هذا الافتقار الذي ظهر عليهم.

تُراه لو منع عنهم سبحانه وتعالى شيئًا مما هم فيه ماذا سيكون حالهم ؟ انظر إلى هذا الحال الذي يمكن أن ينجر إليه المؤمنون في لحظة واحدة فجأة تراهم لا يملكون شيئًا: لا مالاً، ولا طعامًا، ولا شرابًا، لا يملكون ما يقوم به أدنى رمق تستمر به حياتهم.

أيها الفقراء: ما لكم إذن متكبرين؟ ما لكم إذن متقاعسين متكاسلين عن سبب غناكم وسبب راحتكم، وسبب قربكم وسبب علوكم؟ ما لكم متكاسلين عن سبب نجاتكم؟ ما لكم متكاسلين عما يكون سبب قوتكم ومددكم من الله تعالى؟

هذا الفقير المستكبر الذي يرى حياته وضرورته في طريق الله، ثم هو يعترض عليها ويتنكبها ويتكاسل في تحصيلها ويذهب إلى طريق آخر! تُرى لو كانت هذه الدنيا التي يسعى إليها في هذا الطريق وسوف يحصل مالا ويحصل جاهًا ويحصل كذا وكذا وكذا لأتعب نفسه فيه، ولسار إليه ولتحمل المشقة، ولسافر ولترك أهله وولده ووطنه رجاء أن يحصل ريالات زائلة أو دينارات فانية، ويتحمل في سبيل ذلك الغربة والهوان وقلة القيمة، ويتحمل في سبيلها ضياع آخرته وغفلته، ويتحمل نسيان الموت والرحيل عن هذه الحياة الدنيا !

الآيات التالية هي قوله سبحانه وتعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ

قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩]

وهذه الآيات الكريمة تحمل المعنيين: **التهديد والوعيد**، التهديد من الله تعالى بأن يصيبهم ذلك، وتحمل الوعيد كذلك بأنهم سيحدث لهم ذلك، وهذه المصيبة التي ينبغي أن يراعيها كل المؤمنين، المؤمنون المتكاسلون والمؤمنون الحذرون المتفطنون حتى يكون ذلك سببًا لأن يخرجوا من عنق زجاجة التكاسل التي آثروها والراحة التي مالوا إليها، والدنيا التي آثروها.

نزلت هذه الآيات ورسول الله صلى الله عليه وسلم متأهب إلى غزو الروم، وكان الوقت شديد الحرارة، والمسافة طويلة والزاد والماء قليل ؛ إضافة إلى أنهم لم يكونوا كحالنا المرفهة هذه، وإنما كانوا يمشون على أقدامهم، أو يركبون شيئًا من أفراسهم أو إبلهم يقطعون هذه المسافة الطويلة من المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام إلى حدود الشام، وليس ذلك للتنزه وإنما لملاقاة عدوهم، ولأن يقتلوا في سبيل الله كما ذكر عنهم سبحانه وتعالى.

ومن لم يستطع منهم الخروج لضيق الحال جلس يبكي لأنه لن يقاتل في سبيل الله فتزهق نفسه أو تقطع أطرافه !! هؤلاء البكاؤن الذين لم يجد النبي صلى الله عليه وسلم ما يحملهم عليه ليوصلهم إلى القتال والقتل؛ كانت أعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون! لم يكونوا كحالنا أن يقول: بركة يا جامع، الحمد لله ولا شيء فقد سقط عنهم، ثم ذهبوا ليناموا، لا، وإنما قال: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ ﴿٩٢﴾ [التوبة: ٩١-٩٢].

ففي هذه الغزوة صرح النبي بوجهته لملاقة الروم ولم تكن من عادته المشرفة صلوات الله وسلامه عليه أن يصرح بوجهته، ولكنه هذه المرة صرح بوجهته وكان ذلك حين أوشكت ثمار المدينة وحوائطها - بساتينها - أن تطيب وأن تعذب مياهها؛ حتى يستظل بها الناس ويأكلوا ويستريحوا ليستعدوا بعد ذلك لملاقاة عدوهم، وكان الله تبارك وتعالى قادرًا على أن يفعل ذلك: أن يؤخرهم حتى تطيب الثمار، وتعذب المياه، ويأخذوا قسطًا من الراحة ليتمكنوا من ملاقاة العدو، وليتجهزوا أحسن الجهاز لمقاتلة هؤلاء الكفار، ومع ذلك كان الامتحان الذي وجهه الله تعالى للمؤمنين أن ينفروا في هذا الوقت، ألا ينتظروا راحة لهم لا في أرضهم وثمارهم، وألا ينتظروا برد مياههم، وألا ينتظروا ظهور ثمارهم وثمراتهم، وألا ينتظروا قوة يعدونها لعدوهم أكثر مما هم فيه، لا ينتظرون شيئًا من ذلك كله، بل لينفروا خفافًا وثقالاً ليجاهدوا في سبيل الله.

ترتيب الله تعالى إذن غير ترتيب البشر، ترتيبه سبحانه: ترتيب التربية والجهاد، ترتيب التمايز بين المؤمنين ليميز الله تعالى الخبيث من الطيب، ترتيب درجات أهل الإيمان في بذلهم وعطائهم. هذا هو ترتيب الرب جل وعلا ليميز وليبين من يريد وجه الله تعالى والدار الآخرة ومن يريد الدنيا وزينتها.

وانظر إلى هذا المعنى في قوله: ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا ﴾، فالنفرة: أن يتحرك المرء من مكان إلى مكان بسرعة، يعني: كأن خطرًا ما قد دهمه فيقال له: انفر سريعا فيجري ليقوم نافرا من هذا المكان، وانظر إلى قوله بعدها: ﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ يعني: تثاقلتم إلى الأرض، والتثاقل فيه معنى إظهار الثقل يعني: إظهار العجز، لا يريد أن يجاهد، ولا يريد أن يقوم كأنه هو قد تثاقل بنفسه، يعني: وجد ثقلاً من نفسه يجره إلى الأرض، يجره إلى الراحة إلى ماله إلى ثماره.

فكأن المعنى أنه يقول لك: **انفر واجر وسارع وجاهد وابذل إذا بك تقول: أنا عاجز وسقيم ولا أستطيع القيام والنهوض**، ولا أتمكن ولا كذا ولا كذا وإنني كذا وكذا وكل الأعذار التي يبديها هؤلاء الشباب اليوم، وكأنك تعرض عليه الحسنات والآخرة والجهاد ومصالح نفسه فإذا به يفاصلك فيها ! تقول له: حَصِّل هذه الأمور. يقول لك: لا لا أريدها! هل لو عرضت عليه مبلغًا من المال يقول: لا لا لا أعطني نصفه أو ربعه فقط !

وقوله ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ يسمى: استفهام إنكاري، يعني ينكر عليهم هذا الحال، أنكم يقال لكم: انفروا ... لا تنفروا، قوموا إلى الجهاد.... لا تقوموا ! وليس فقط لا تقوموا ولا تسرعوا، بل العكس تتثاقلون إلى الأرض، وتنزلون بكل ثقلكم إليها مائلين إليها مخلدين إلى الراحة !

وهذا هو المعنى الثاني أنه لما تثاقل إلى الأرض يعني أنه تثاقل إلى راحته، لم يفر ولم ينفر إلى الجهاد في سبيل الله؛ فقدم راحته ونومه وماله، قدم هذا الزائل كله على أن يجاهد في سبيل الله، قدم مصلحة الجسم الفاني ، قدم هذا التكاسل الشيطاني على ما عند الله تعالى من مصالح الآخرة ومن مصالح الدنيا؛ لأنه إذا أصابه التعذيب والاستبدال سيصيبه في الدنيا قبل الآخرة كما ستشير الآيات.

﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾ وهذا كذلك إنكار: أرضيتم بالحياة الدنيا بدلاً من الآخرة؟ فقوله: ﴿ مِنَ ۚ ﴾ يعني: بدلاً من الآخرة، أرضيتم بالحياة الدنيا بدلاً من الآخرة؟ أرضيتم بما لا يرضى به مؤمن؟ ما الذي أصابكم؟ ما الذي ملتم إليه؟

ما الذي عكس في عقولكم وقلوبكم المعاني الحقة حتى آثرتم الراحة والكسل على مصالح الدنيا والآخرة التي بين الله تعالى: ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ ؟

وانظر أيها الجاهل، وانظر أيها الفقير كما ذكرنا في بداية القول، انظر إلى الرد: ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ متاع الحياة الدنيا كلها من أولها إلى آخرها الذي تميل إليه وتركن له، وتقدمه على مصالح الجهاد والنفرة في سبيل الله، الذي تقدمه على صلاتك وقيامك وصومك وذكرك، الذي تقدمه على بذلك وصدقتك، الذي تقدمه على ما عند الله تعالى، **كل ذلك قليل** يعني: ضعيف ودنيء وفان، تقدم الضعيف الدنيء القليل الفاني!

ثم قال لهم بعد ذلك مشددا عليهم منكرا عليهم مهددا لهم متوعدا لهم: ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ والعذاب يطلق في القرآن على عذاب الآخرة، ولكن سياق الآيات هنا يشير إلى عذاب الدنيا؛ لأنه قال:﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ ففي الدنيا يرفع عليكم الكفرة؛ فيقتلونكم ويستبيحون أرضكم، وينتهكون أعراضكم، وينتهبون ثرواتكم ويذلونكم، ويظهرون صلبانهم، ويظهرون مصائبهم على دينكم وإسلامكم.

﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ وحتى لا يتطرق إلى عقل المرء أن الاستبدال هنا أن الله تبارك وتعالى يذهب بالمؤمنين ثم يستبدل قومًا غيرهم لا، **وإنما الاستبدال لهؤلاء الذين تقاعسوا وتكاسلوا وقدموا راحتهم على الجهاد والبذل وعلى الصدقة والسعي لله تعالى**، يعني: لا ينتظر من الله تعالى أن يذهب بالمؤمنين كلهم ولم يكن ذلك من ناموسه الكوني، ولا من سيرة الله تعالى في خلقه أن ذهب بالمؤمنين كلهم ثم أتى بغيرهم، لا،

وإنما ذهب بمن يستحق أن يذهب به، ثم جاء بقوم آخرين، وليكون ذهاب المتقاعسين أمام غيرهم عبرة وعظة وتذكرة، حتى يستطيع غيرهم أن يعاودوا أنفسهم وأن يراجعوا ربهم، وأن يسارعوا في التوبة والرجوع إلى الله تعالى.

لذلك قال في هذه الآية:﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يعني: **أيها الناكسون أيها الفارون أيها المتثاقلون أيها المتكاسلون سوف تستبدلون،** ويبقى غيركم ممن لم يكن على هذا الحال السيئ ليضيف الله تعالى له جديدًا من أهل الإيمان يؤازرونهم ويقوونهم، وتكون بهم شوكة يستطيعون أن يعيدوا بها إسلامهم ودينهم ويرفعوا رايتهم.

فماذا ينتظرون إذن؟ العذاب قد حلَّ على مقربة من ديارهم وأرضهم، والاستبدال وقد استبدل بغيرهم كما ذكر الله تعالى فلم يبق إلا التعذيب لهم والاستبدال بهم حتى يفيقوا إلى ما هم فيه.

﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ هؤلاء الذين تثاقلوا إلى الأرض **لن يضروا أحدًا إلا أنفسهم،** لن يضروا الله شيئًا وإنما الضرر الواقع واقع عليهم، والضرر الواقع متجه إليهم، وسوف يرون مغبة هذا الضرر وعاقبة هذا التقصير والتفريط ليروا صدق كلام الله تعالى في تقاعسهم عن ربهم ونصرة دينهم والنفرة وراء نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد جاء رمضان ليتغير الحال، وقد جاء رمضان ليعاهد المؤمنون ربهم سبحانه وتعالى وأن يوفوا بما عاهدوا من قبل، أو أن يعاهدوا الله تعالى ألا يمر عليهم ذلك الشهر الكريم إلا وقد أحلوا أنفسهم المنزلة اللائقة بالمؤمنين المحبين المقبلين على الله تعالى، المسارعين إلى مغفرته ورضوانه، الباذلين لراحتهم ونومهم، التاركين لمألوفاتهم ومأكلهم ومطعمهم ومشربهم وملبسهم، التاركين لهيئتهم الجميلة ومناظرهم الحسنة، التاركين

لذلك كله في سبيل أن يغبروا رؤوسهم وأقدامهم لله تعالى، في أن يقوموا لله جل وعلا، في أن يبذلوا لله تعالى، في أن يداوموا على ذكر الله تعالى، في أن يبكوا على ما قصروا وفرطوا، في أن يعرضوا عن هذا الكسل، وأن ينفروا عن هذا التثاقل، وأن يسرعوا إلى الائتمار بأمره كما قال: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ لَوْ ﴿٤١﴾ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٤١-٤٢].

وهي الصيغة التي نحن فيها اليوم وكل يوم: ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ [التوبة: ٤٢] لو استطعنا لأتينا الدرس، لو استطعنا لصلينا، لو استطعنا لبذلنا، لو استطعنا لذهبنا، وفعلنا، وفعلنا، انظر ماذا قال الله لمثل هؤلاء: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ ﴾ لو كان شيئًا سهلاً وصلاة سريعة وقياما خفيفا ﴿ لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ ﴾ بعد عليهم الأمد، بعدت عليهم المسافة؛ فاستطولوا هذه المسافة في سبيل الله سبحانه وتعالى.

﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ عَفَا ﴿٤٣﴾ ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [التوبة: ٤٢-٤٥] ، وإن كانت في المنافقين - على قول- فإنها تنسحب على من اتصف بها من المؤمنين زجرًا ووعظًا.

مقدمة ..... - ٥ -
الفصل الأول: لماذا لا نستجيب ؟ ..... - ١١ -
شتان الفارق بين الحقيقة والخيال ..... - ١٤ -
أولًا: إيثار الدنيا والدوران في فلكها ..... - ٢٢ -
ثانيًا: قلة التوكل على الله ..... - ٢٥ -
ثالثًا: الغفلة عما عند الله تعالى ..... - ٢٨ -
رابعًا: الاتكال على عفو الله تعالى ..... - ٣٥ -
الفصل الثاني: المجاهدة ..... - ٤٧ -
أولًا: ملامح المجاهدة ..... - ٤٨ -
ثانيًا: أبواب وطرق المجاهدة ..... - ٦٩ -
ثالثًا: تفسير آيات المجاهدة ..... - ٨٩ -
رابعًا: صورة أهل المجاهدة ..... - ١١٦ -
خامسًا: لا تتزحزح حتى يفتح لك ..... - ١٣٢ -
الفصل الثالث: الاستبدال ..... - ١٣٧ -
أولاً: ليس بين الله وبين أحد قرابة ..... - ١٣٨ -
ثانيًا: تفسير آيات الاستبدال ..... - ١٤٠ -